صوت الخرافة والأسطورة في الأدب الجاهلي

الدكتور

عبد الجواد محمد المحص

الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد بالكلية

صوت الخرافة والأسطورة
فى الأدب الجاهلى

لكل أمة أوهام تنشأ معها فى طفولتها الانسانية حين يكون للخيال بين قوى العقل الانسانى المكان الأول والسلطة القاهرة، وما طفولة الانسانية سوى مثل واضح وشكل صحيح لطفولة السن، ونحن نرى الأطفال وقد صارت مشاعرهم كلها خيالات فهم إذا فرحوا تخيلوا وإذا فزعوا تخيلوا وإذا أحبوا تخيلوا وإذا أبغضوا تخيلوا وهم أكذب وكذبهم أطهر الكذب. ولذلك عمد المربون لهذه القوة فنهنهوا من غلوائها وأحسنوا فى توجيه خيارها واجتهدوا فى تعديل مزاج الطفل بتنمية بقية قواه حتى تتناصف ولا تقوى على أخواتها.

والغرارة فى نشأة الطفل تقابلها الجهالة فى نشأة الأمم فكل منهما فى غلبة الأوهام وطغيان الخيال ومن ثم كانت أعرق الأمم فى الجهالة أبعدها فى مطارح الأوهام وأكثرها تصوراً لها.

فكل أمة متحضرة قد مرت بمراحل تطورية متباينة قبل أن تصل إلى مرحلة الاكتمال الاجتماعى، والتكامل الحضارى، وتلك المراحل ترافقها طبائع، وعادات تقترب أو تبتعد عن الذروة الحضارية بالقياس إلى الفترة الزمانية المقصودة، ولابد أن تمر بعصر يمكن أن نطلق عليه عصر الأوهام والخرافات، والأمة العربية كأية أمة مرت بتلك الأعصر وانطبق عليها ذلك الحكم.

لم يعفهم فكرهم الجاهلى وتجاربهم البدائية من أن ينتشر بينهم ركام زاخر من الخزعبلات والأوهام والأساطير والعادات والاعتقادات العجيبة البعيدة عن مجال العقل والمنطق الصحيح. والجاهليون معذورون فى ذلك لأنهم كانوا يحيون حياة بدوية قاسية، ولا يستعملون العقل والحكمة فى جوانب الحياة، ولا يحسنون ربط الأسباب بمسبباتها، على أنهم ليسوا بدعا فى ذلك، ولم يختصوا بإدخال الخرافات على التاريخ، ولا باختراع الأوهام المجافية للحقيقة والواقع، فقد كان ذلك شأن الأمم القديمة كلها.

ولا ينبغى لدارس الأدب الجاهلى أن يرفض - فى دراسته - هذا الجانب من حياة الجاهليين بدعوى بعده عن الواقع والحقيقة.

صحيح ما يقوله أحد الباحثين من أن «أساطير الجاهلية ومعارفها بقايا أنباء غامضة تداولتها الأجيال فاستقبلتها عقول خضعت لعقائد وثنية كلها خرافة وتدجيل»[1] ولكن الخرافة موضع اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الذين يعكفون على دراستها وتصنيف دلالاتها على أسس حضارية مقارنة، وهم يرون أن المعتقدات الخرافية هى من صميم الفولكلور أو الآثار الشعبية القديمة ذات الدلالة على المستوى الحضارى والثقافى الذى بلغته أية أمة، بل يرى علماء الأنثروبولوجيا أنه يمكن إعادة بناء الفترات التاريخية الغابرة التى لا توجد عنها إلا شواهد متفرقة عن طريق الدراسة الأنثروبولوجية.

والحقيقة أننى لا أريد رفض الأساطير رفضا باتا على أساس بعدها عن الواقع التاريخى، ولا أريد اعتمادها وثيقة تاريخية صحيحة، بل أرى ألا تغيب الأساطير ومدلولاتها عن أذهاننا فى محاولة استجلاء تاريخ العرب

(١) العرب فى أحقاب التاريخ: ص ١٥٤.

القديم ودراسة الأدب الجاهلى.

وقد اختلف الباحثون فى تعريف الأسطورة اختلافاً لا يقف عند حد، فمن قائل «إن الأسطورة علم بدائى أو تاريخ أولى أو تجسيد لأخيلة غير واعية» إلى آخر يرى أنها مرض من أمراض اللغة لأن أغلب الآلهة الوثنية ليست سوى أسماء شاعرية سمح لها بأن تتخذ شيئاً فشيئاً مظهر شخصيات مقدسة لم تخطر ببال مبدعيها الأصليين... إلى ثالث ورابع وخامس... وهلم جرا.

بيد أن التعريفات المختلفة للأسطورة تكاد تجمع كلها على أن الأسطورة حقل من حقول المعرفة ملفع بالغموض والضباب والفتنة، وأنها تمثل المرحلة الأولى من طريق البشرية إلى اكتساب المعرفة. أما الحكاية الخرافية فإنها قريبة فى مدلولها الأصلى من الأسطورة، وإن كانت المعاجم العربية لا تشير إلى شئ من ذلك، حيث تكتفى ببيان أن الخرافة هى الحديث المستملح من الكذب، وتسوق فى تأكيد ذلك مثلهم المشهور: «حديث خرافة»، فتروى عن ابن الكلبى صاحب كتاب الأصنام أن خرافة هذا كان رجلاً من بنى عذرة أو من جهينة، وكان قد اختطفته الجن، ثم رجع إلى قومه، فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس فكذبوه، فجرى ذلك على ألسنهم(١).

ويسوّى كثير من الباحثين بين مفهومى الخرافة والأسطورة، وإن فرق بعضهم بينهما بأن جعل الخرافة تتصل بالمأثورات الشعبية التى لا يدخل فيها الدين، حتى إنه من الممكن أن نقول إنه إذا تضمنت الحكاية الخرافية موضوعها دينياً، فمن الأفضل أن نسميها أساطير. وبذلك تظل الأساطير

(١) أنظر: لسان العرب لابن منظور: مادة خرف.

مرتبطة بمعتقدات الإنسان القديم الدينية، وقد تستمر معه رغم تقدمه الحضارى، على حين لا تتضمن الحكاية الخرافية، بمضمونها الخالى من التراث الدينى، مثل هذا الاستمرار والتأثير فى المجتمعات(١).

وأيا كان الأمر، فإن المعتقدات الخرافية والأسطورة للعرب الجاهليين ذات أهمية كبرى فى الكشف عن ثقافة العرب قبل الإسلام كشفاً جلياً، ولذلك فإن ما يبذل من جهد للتنقيب عنها جدير بتقدير العلماء، ولا سيما ما كان له صدى فى أدب الجاهليين شعراً ونثراً.

وإن من يتأمل تلك الخرافات والأساطير يجدها متنوعة، فمنها ما يتصل بالفلك، ومنها ما يتصل بالحيوان، ومنها ما يتصل بالغيب، ومنها ما يتصل بالإنسان، ومنها غير ذلك على النحو الذى سندركه بعد قليل.

الأساطير الفلكية:

والأساطير الفلكية المتعلقة بالكواكب والنجوم لها دور كبير فى حياة العرب رغم قلتها، جاء فى الجزء الأول من كتاب «إخوان الصفاء» عن أوائل ساعات الأيام: «اعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة فأول ساعة من يوم الأحد للشمس، وأول ساعة من يوم الاثنين للقمر، وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ، وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد، وأول ساعة من يوم الخميس للمشترى، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة، وأول ساعة من يوم السبت لزحل»... وكانت العرب تسمى الأيام فى الجاهلية على النحو التالى: «الأحد أول، والاثنين أهون، والثلاثاء جبار، والأربعاء

(١) أنظر: الأساطير لأحمد كمال زكى: ص ٦٦، ط مؤسسة كليوباترا ١٩٨٢ الطبعة الثانية.

دبار، والخميس مؤنس، والجمعة عروبة، والسبت شبار».. وقال شاعرهم فى ذلك:

أؤمل أن أعيش وأن يومى *** بأول أو بأهون أو جبار
أو المردى دبار فإن أفته *** فمؤنس أو عروبة أو شبار

ولقد حظى القمر بأسطورة طريفة خلعت عليه صورة إنسانية تقترب بعض الشئ من الأساطير اليونانية.. وفى هذه الأسطورة يخبر القمر عن أحواله التى يكون عليها إبان الشهر.. فمما جاء فيها:

قيل ما أنت ابن ليلة؟ قال: رضاع سخيلة حل أهلها برميلة.. قيل: فما أنت لليلتين؟

قال: حديث أمتين ذواتى إفك ومين.. قيل: فما أنت لثلاث؟ قال: حديث فتيات يجتمعن من شتات.. ثم قيل: فما أنت لثلاث عشرة؟ قال: قمر باهر يعشى عين الناظر.... قيل: فما أنت لأربع عشرة؟ قال: مقتبل الشباب أضئ بين السحاب.. قيل: فما أنت لخمس عشرة؟ قال: ثم التمام ونفدت الأيام... ثم قيل: فما أنت لخمس وعشرين؟

قال: أنا فى تلك الليالى لا قمر ولا هلال... قيل: فما أنت لست وعشرين؟ قال: دنا الأجل وانقطع الأمل».

الأساطير الحيوانية:

وتدور الأساطير الحيوانية حول الحيوانات التى كانت موجودة فى شبه الجزيرة العربية أو التى يمكن للخيال أن يخترع أشكالها ويعطيها من الأسماء ما يتفق وتلك الأشكال...

ومنها – فى مجال النثر والأمثال الافتراضية:

أسطورة الأرنب والثعلب التى تروى أن الأرنب عثرت على ثمرة غير أن الثعلب استطاع ببدهائه أن يسرقها منها ويأكلها. ولم تجد الأرنب بدأ من أن تذهب هى والثعلب إلى الضب ليحكم بينهما.. فقالت الأرنب: يا أبا الحسيل! فقال: سميعا دعوت. قالت أتيناك لنحتكم إليك فاخرج إلينا. قال: فى بيته يؤتى الحكم. قالت: إنى وجدت تمرة. قال: حلوة فكليها قالت: فاختلسها الثعلب منى فأكلها. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت. قالت: فلطمنى. قال: حر انتصر. قالت فاقض بيننا. قال: حدث الرعناء بحديثين فإن أبت فاربع (أى أمسك وكف) وفى رواية أخرى: قال: قد قضيت.

ومن الطيور الخرافية الجاهلية ما سموه (الهامة) حيث زعموا أن روح القتيل، تتقمص بعد موته على شكل طائر يشبه البومة، تظل تصيح على قبره «اسقونى....» حتى يثأر له، وسموا هذا الطائر «الهامة» وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم وزعموا أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت فى محلته بفنائهم، لتعلم ما يكون بعده، فتخبره به، فقال الصلت بن أمية:

هامى تخبرنى بما تستشعروا *** فتجنبوا الشنعاء والمكروها[1]

وقال لبيد وهو من أصحاب المعلقات فى رثاء أخيه:

فليس الناس بعدك فى نقير *** وليسوا غير أصداء وهام

وقال أبو ذؤيب الهذلى يصف تلك الهام تصيح حول القبور بعد أن تخرج من القبر الذى سيمسى برهوة حيث هى أنيسة:

(١) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٤٠٠، مطبعة بولاق بمصر.

فإن تمس فى رمس برهوة ثاويا *** أنيسك أصداء القبور تصيح[١]

وقال ذو الأصبع العدوانى مهددا ابن عمه المبغض له:

لى ابن عم على ما كان من خلق *** مختلفان فأقليه ويقلينى
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا *** فخالنى دونه أو خلته دونى
يا عمر إلا تدع شتمى ومنقصتى *** أضربك حتى تقول الهامة اسقونى[٢]

وقال أبو دؤاد الإيادى:

سلط الدهر والمنون عليهم *** فلهم فى صدى المقابر هام
فعلى أثرهم تساقط نفسى *** حسرات وذكرهم لى سقام[٣]

وقال عبيد بن الأبرص:

تطريب عان أو صيا *** ح محرق أو صوت هامة[٤]

وقال: شداد بن الأسود بن عبد شمس فى رثاء كفار قريش يوم بدر:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا *** وكيف حياة أصداء وهام؟!

ومن أساطير الهام ما روى عن حاتم الطائى أنه مر بقبره رجل يكنى أبا البخترى ومعه نفر من قومه. فبات أبو البخترى يناديه: يا أبا الجعد أقرنا. فقال قومه له: مهلا، تكلم رمة بالية؟ قال: إن طيئا تزعم أنه لم ينزل به أحد قط إلا قراه... وناموا فلما كان آخر الليل قام أبو البخترى مذعوراً فزعاً ينادى: واراحلتاه؟ فقال له أصحابه: ما بدالك؟ قال: خرج حاتم من قبره

(١) رهوة: اسم مكان، أصداء: طائر الهامة، ديوان الهذليين جـ ١ ص ١١٦. ط دار الكتب ١٩٦٥م.
(٢) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٣٧.
(٣) تاريخ الأدب الجاهلى لشوقى ضيف ص ٢١٠. ط دار المعارف بمصر الطبعة الحادية عشرة.
(٤) المنتخب من أدب العرب لطه حسين وآخرين: ص ٨١ ط دار الكتب ١٩٣٢م.

بالسيف وأنا أنظر حتى عقر ناقتى. قالوا له: قد والله قراك. فظلوا يأكلون من لحمها شواء وطبيخا حتى أصبحوا ثم أردفوه وانطلقوا سائرين فإذا راكب بعير يقود آخر قد لحقهم فقال: أيكم أبو البخترى؟ فقال أبو البخترى: أنا ذلك. قال: أنا عدى بن حاتم وإن حاتما جاءنى الليلة فى النوم ونحن نزول وراء هذا الجبل. فذكرت شتمك إياه وأنه قرى أصحابك براحلتك. وأنشدنى يقول فى شعره:

أبو البخترى لأنت امرؤ *** ظلوم العشيرة شتامها
أتيت بصحبك تبغى القرى *** لدى حفرة صدحت هامها
أتبغى لى الذم عند المبيت *** وحولك طى وأنعامها؟
فإنا سنشبع أضيافنا *** ونأتى المطى فنعتاقها

وقد أمرنى أن أحملك على بعير مكان راحلتك فدونكه..

ولقد كان لهذه الأسطورة صداها الواسع بين العرب وقد ذكرها سالم بن زرارة الغطفانى فى مدحه عدى بن حاتم وذلك حيث يقول:

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل *** لأن شب حتى مات فى الخير راغبا
به تضرب الأمثال فى الشعر ميتا *** وكان له إذ ذاك حيا مصاحبا
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به *** ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

هذا ولأسطورة الهامة: علاقة بأسطورة الصدى. والصدى طائر يخرج من رأس المقتول إذا بلى. وقيل هو الهامة أو ذكر البومة أى مذكر الهامة.

والخرافتان معا مبعثهما ولعهم بالثأر، وأى تحريض على الثأر أقوى من زعمهم هذا الزعم، وترد يدهم لتلك الخرافة؟ وزعمهم أن النفس طائر ينبسط فى الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطوف به مستوحشاً يصدح

على قبره، ويظل هذا الطائر يكبر حتى يصير كضرب من البوم المستوحش الذى لا يسكن إلا الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور، وأنه سيظل عند ولده عينا للقتيل ليعلم ما يكون بعده فيخبره به؟[1].

وحرى بالذكر أن الإسلام قد أبطل هذه الخرافة بقوله صلى الله عليه وسلم «لاهام ولا صفر»:

ومع ذلك فقد بقيت للأسطورة بعض الأصداء عند الشعراء يتمثلون بها كما يتمثل الشعراء المحدثون بأسطورة يونانية أو مصرية، فيقول توبة ابن الحمير فى ليلى الأخيلية:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت *** على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا *** إليها صدى من جانب القبر صائح

ومن المعتقدات الخرافية الجاهلية المتصلة بالحيوان أيضاً: ما كانوا يزعمونه من أن فى البطن حية إذا جاع الإنسان عضت على شرسوفه وكبده.

وكان العرب فى الجاهلية يضربون الثور إذا امتنعت البقر عن الماء ويقولون إن الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب، وفى ذلك يقول الشاعر:

كذلك الثور يضرب بالهراوى *** إذا ما عافت البقر الظماء

وقال آخر:

فلا تجعلوها كالبقر وفحلها *** يكسر ضربا وهو للورد طائع
وما ذنبه أن لم ترد بقراته *** وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

(١) انظر: مروج الذهب للمسعودى: ٢٥١/١.

ويتعجب النابغة الذبيانى من أن يعاقب على ذنب لم يرتكبه، مشبها حاله بحال الثور المجنى عليه، يضرب لأن البقر لا ترد الماء:

أتترك معشرا قتلوا هذيلا ★★★ وتعقبنى بما فعلت جذام
كذلك يضرب الثور المعنى ★★★ إذا ما عافت البقر الحيام

وقد علل الجاحظ ذلك الضرب بعلة معقولة فأخرجه عن أن يكون وهما وجعله رأيا حصيفا ومعرفة بطبائع الحيوان قال (وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل وكما تتبع أتن الوحش الحمار) وبعد أن روى أبياتا منها ما ذكرناه قال وكانوا يزعمون أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك – قال الأعشى فى ذلك:

فانى وما كلفتمونى وربكم ★★★ لأعلم من أمسى أعق وأحربا
لكالثور والجنى يضرب رأسه ★★★ وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر ★★★ وما أن تعافوا الماء الا لتضربا(١)

ولعل هذه العادة كانت أصلا نتيجة التدبير الذى ذكره الجاحظ أولا ثم تنوسى ذلك فصارت وهما معللا بهذه العلة الخيالية وكثير من الأوهام كانت أصلها حقائق تؤول إلى علم صحيح.

ومن الخرافات المتصلة بعالم الحيوان أيضا: خرافة الاستمطار بالأبقار المحروقة، حيث كانوا إذا أصابهم الجدب طلبوا السقيا واستمطروا

(١) انظر: عيار الشعر لابن طباطبا العلوى ص ٣٤ ط المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٦ وديوان الأعشى ص ١١٥ المكتب الشرقى للنشر والتوزيع بيروت ١٩٦٩ بتحقيق محمد محمد حسين والحيوان للجاحظ بتحقيق هارون مكتبة الخانجى ١٦٩٨ والشول: الناقة الراغبة فى الجماع.

بالأبقار يصعدون بها فى جبل وعر ثم يربطون السلع والعشر بأذنابها، ثم يضرمون فيها النار ويضجون بالدعاء. وقد سجل أمية بن أبى الصلت خرافة السقيا بالأبقار المحروقة فقال:

سنة أزمة تخيل بالناس *** ترى للعضاة فيها صريرا
إذ يسقون بالدقيق وكانوا *** قبل لا يأكلون شيئاً فطيرا
ويسوقون باقر السهل للطو *** د مهازيل خشية أن يبورا
عاقدين النيران فى شكر الأذنا *** ب عهدا كيما تهيج البحورا
فاشتوت كلها فهاج عليهم *** ثم هاجت إلى صبير صبيرا
فرآها الإله ترشم بالقطر *** وأمسى جنابهم ممطورا
فسقاها نشاطه واكف النبت *** منه إذا وادعوه الكبيرا
سلع ما ومثله عشر ما *** عائل ما وعالت البيقورا(١)

وقيل فى تعليل ذلك «إنهم كانوا يتفاؤلون بالنار طلبا للبرق، أو إنهم كانوا يحاكون عبادة قديمة تقرب الأبقار قربانا للآلهة».

ومن خرافاتهم المتصلة بالحيوان أيضاً خرافة (الناقة البلية) إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره ويعكسون رأسها إلى ذنبها ويغطون رأسها بولية وهى البردعة فإن أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى، ويزعمون أنهم انما يفعلون ذلك ليركبها صاحبها فى المعاد ليحشر عليها فلا يحتاج أن يمشى وهذا الاعتقاد الذى يكشف عن ايمان بعض العرب الجاهليين بالبعث والنشور يشبه إلى حد بعيد معتقدات المصريين القدماء فى الحياة الأخرة.

---

(١) تخيل بالناس: تفزعهم. العضاة: جمع عضاهة أعظم الشجر أو الخمط أو كل ذى شوك. باقر وبيقور: البقر. شكر الأذناب: جمع شكير الشعر فى الذيل. الصبير: السحابة البيضاء أو الكثيفة منه: بالغ الغاية. عائل: مثقل أو كاف ونافع. عال: أثقل. ويروى غال بمعنى أهلك.

﴿ ٦٨٦ ﴾

قال لبيد بن ربيعة:

تأوى إلى الأطناب كل رذية *** مثل البلية قالص أهدامها[١]

وقال أبو زبيد:

كالبلايا رؤوسها فى الولايا *** ما نحات السموم حر الخدود[٢]

وهناك عادة مشابهة، لهذه العادة حيث روى أنهم كانوا يعقرون رواحلهم على قبور أبطالهم وساداتهم، وينضحون دمها على القبر، ومما يروى فى ذلك أن حسان بن ثابت مر على قبر ربيعة بن مكدم الفارس المشهور فى الجاهلية فقال:

نفرت قلوصى من حجارة حرة *** بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفرى يا ناق منه فإنه *** شريب خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه *** لتركتها تحبو على العرقوب[٣]

وقال آخر:

إن الشجاعة والسماحة ضمنا *** قبرا «بمرو» على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقر به *** كوم الجلاد وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها *** فلقد يكون أخادم وذبائح[٤]

وقيل فى تعليل هذا العقر على القبور: إنهم كانوا يفعلون ذلك إعظاما

(١) الأطناب: جمع طنب وهى حبال الخيام، رذية: الضعيفة جوعا، البلية: الناقة التى تربط عند قبر صاحبها، قلص: صفة لرذية، أهدامها: جمع هدم وهو الثوب الخلق البالى.
(٢) محاضرات فى الشعر الجاهلى للدكتور سليمان ربيع ١٩٧٢م ص ٦٦.
(٣) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم عطية ص ١١٣ الطبعة ٣ سنة ١٩٣٦م.
(٤) بلوغ الأدب فى معرفة أحوال العرب للألوسى جـ ٢ ص ٣١٠ ط ٣.

للميت، وتكريماً له، وإعلاناً عن فضله.

وقيل لأن الإبل تأكل عظام الموتى إذا بليت، فكأنهم يثأرون لهم منها، أو لأن الإبل أنفس أموالهم، فكانوا يريدون بعقرها أنها قد هانت عليهم لعظم المصيبة.

ومن خرافاتهم المضحكة التى يحاكى فيها الإنسان الحيوان خرافة (التعشير) إذ كان الرجل منهم إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها أو جنيها وقف على بابها وعشر (نهق كما ينهق الحمار) ثم دخلها معتقداً أنه إذا فعل ذلك لم يصبه وباؤها ولا جنيها ولا سيما إذا علق على نفسه بعد نهيقه كعب أرنب ليكون عوذة له ورقية من الوباء والجن ومن العين والسحر ايضاً؛ لكن عقلاءهم لم يستجيبوا لهذه الخرافة وأنكروها. قال عروة بن الورد:

لعمرى لإن عشرت من خشية الردى ⁂ نهاق حمير إننى لجزوع

وقال آخر:

ولا ينفع التعشير إن حم واقع ⁂ ولا زعزع يغنى، ولا كعب أرنب

وقيل فى تعليل تعليق كعب الأرنب: إن الأرنب ليست من مطايا الجن لأنها تحيض ولذلك تهرب من كعبها إذا علقه الإنسان على نفسه فيسلم من أذاها. وكانوا يعتقدون – أيضاً – أن الذى فجر سد مأرب، وسبب سيل العرم وفيضان الماء هو «الفأرة».

وكانوا يعتقدون أن من الابل وحشياً وكذلك الخيل، وأن تلك الإبل تسكن أرض وبار لأنها غير مسكونة. وقال آخرون: هذه الإبل الوحشية هى الحوش من بقايا إبل وبار، فلما أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وجاسم بقيت إبلهم فى أماكنهم لا يركبها إنس،

فإن ذهب أحد إلى تلك الأماكن حثت الجن فى وجهه، فإن ألح خبلته.

ومن خرافاتهم أيضاً: تعليق سن الثعلب وسن الهرة وحيض السَّمُره - إذ كانوا يزعمون أن الصبى إذا خيف عليه النظرة فعلق عليه شئ من ذلك سلم من آفته وأن الجنية إذا أرادته لم تقدر عليه - قالت امرأة تصف ولدا:

كان عليه سنة من هرة *** وثعلب والحيض حيض السمرة

ومنها الخرافة المسماة «تصفيق الضال» إذ كان الرجل منهم إذا ضل فى الفلاة قلب ثوبه وحبس ناقته وصاح فى أذنها كأنه يومئ إلى انسان وصفق بيديه قائلاً: الوحى - الوحى النجاء النجاء - هيكل - الساعة الساعة إلى إلى عجل. ثم يحرك ناقته فيزعمون أنه يهتدى إلى الطريق حينئذ - قال الشاعر:

وآذن بالتصفيق من ساء ظنه *** فلم يدر من أى اليدين جوابها

يريد ساء ظنه بنفسه حتى ضل.

ومن عاداتهم الغريبة ما يسمى بـ (البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وهى أمور خاصة بالحيوانات، وخصوصاً الإبل إذا تم أمر معين مثل ولادة بطون معينة أو بلوغ سن مخصوصة.

فكانت الناقة: إذا أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحلب.

وكان الرجل منهم إذا مرض يقول: إذا شفيت، فناقتى سائبة، ويجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها. وقيل هى التى تسيب للأصنام فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم. وقيل غير ذلك.

وإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم، وإن

ولدتهما معا، قالوا: وصلت الأنثى أخاها. وقيل هى الشاة تنتج سبعة أبطن فإن كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشئ إلا أن تموت فيأكلها الرجال دون النساء. وكذا إن كان ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فتترك معه ولا ينتفع بها إلا الرجال دون النساء. فإذا ماتت اشتركوا فيها.

وإذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره، ولم يمنعوا ماء ولا مرعى وقالوا: لقد حمى ظهره.

وفى ذلك دلالة على أن الجاهليين مزجوا معتقداتهم الدينية بالخرافة، فحرموا على أنفسهم أموراً ليس لتحريمها أساس من الصحة.

ومن خرافاتهم أيضا: جب سنام الفحل حين تبلغ الإبل من حوله ألفا، فيجبون سنامه أو يفقأون عينه مخافة عين الحسود - وممن فعل ذلك زهير بن أبى سلمى[1] ودفعهم إلى ذلك: اعتزازهم بالإبل كثيراً وتعظيمهم لها، واهتمامهم بتربيتها وتنمية عددها باعتبارها أنسب الحيوانات لطبيعتهم الصحراوية، وباعتبارها مركبهم ومطعمهم، وأرق الحيوانات ألبانا وأقلها غائلة وأصبرها على الجوع والعطش تكتفى بأشواك الصحراء غذاء والشربة تكفيها لعدة أيام وبها يفتدون أسراهم ويدفعون دية قتلاهم ومن هنا كانوا يذبحون الفرع لأصنامهم ثم يأكلونه ويلقى جلده على الشجر، وربما ذبحوا «العتيرة» إذا بلغت الإبل ما تمناه صاحبها فكلما بلغت مائة، يعتر عنها بعيراً، ولا يأكل منه هو ولا أهل بيته، وأما العتيرة فكانت تذبح فى رجب، وأبطل الإسلام الفرع والعتيرة لا لذاتهما وإنما لصفتهما، وتحديدهما بأول النتائج أو تحديدهما

(١) أنظر : العصر الجاهلى لشوقى ضيف: ص ٣٠٢

فى رجب[1]، ففى الحديث الشريف «لا عتيرة» وربما بخل أحدهم عن ذبح العتيرة فيصيد الظباء فيذبحها عوضا عن الشياه أو الإبل والمذبوح يسمونه فى تلك الحالة «الرجيبة» فقال الحارث بن حلزة ينتقد من يطالبهم بذنوب غيرهم كالرجيبة تذبح بدلاً من العتيرة:

عننا باطلا وظلما كما توتر *** عن حجرة الربيض الظباء

ومن الأساطير الجاهلية المتصلة بعالم الطير: تلك الأسطورة التى رواها السيوطى فى كتابه (المزهر) لبيان السبب فى الحرب التى اشتعلت بين «همدان» و«مراد» وسوف نلاحظ منها ما يدل على أن عرب الجاهلية قبيل الإسلام كانوا قريبى عهد بالطوطمية[2] حيث كانت تتمسك كل جماعة بطوطمها، فتتخذه حاميها والمدافع عنها. وسوف نلاحظ أيضاً أن قبيلة مراد كان طوطمها النسر، وأنها كانت تقدم له القرابين، وتقوم بأنماط من الشعائر والطقوس من بينها أن تجرى القبيلة قرعة بين فتياتها لاختيار من يقدمونها منهن هدية للنسر، ليمزقها ويأكل لحمها، ثم يشرب بعد ذلك ما أعدوا له من خمر. حتى يخبرهم بما يكون من أمرهم فى العام الجديد - لأنه هو الأرجح

(١) أنظر: بلوغ الأرب: ٣/٤١.

(٢) الطوطمية: منسوبة إلى الطوطم وهو الحيوان الذى يرتبط باسم العشيرة عند الشعوب البدائية، وبخاصة أهالى استراليا الأصليين، ويعد لحم هذا الحيوان محرماً على أفرادها الذين يعتقدون أنهم انحدروا منه ويحملون لذلك اسمه، ولذلك يجب عليهم القيام نحوه بشعائر وطقوس معينة فى مواسم خاصة. وكثيراً ما يحرم النظام الطوطمى قيام صلات جنسية بين أفراد الطوطم الواحد لأنهم إخوة وأخوات لانحدارهم من طوطم واحد. وليس هناك نظرية واحدة مقبولة تماماً عن أصل ذلك النظام؛ ومع ذلك فإن الطوطمية ظاهرة عالمية؛ وقد تعرف العلماء على تقاليدها عند شعوب بدائية كانت تعيش فى استراليا وشمال أمريكا وغيرهما.

عقلاً والأكثر حكمة – ثم يطير بعد ذلك. كذلك سوف نرى أن اعتداء أحد الهمدانيين على هذا النسر – وفقاً للقصة – قد سبب ألماً شديداً لقبيلة مراد لأنها رأت فى ذلك اعتداء على طوطمها، أو جدها الأكبر، أو إلاهها الحامى الذى هو مصدر الخير والحكمة فيها.

ومع ذلك، فإن تردد قبيلة مراد فى تقديم إحدى بناتها للنسر – كما تقول القصة – واختيارها أن تقدم فتاة غريبة من همدان بدلاً منها، يمثل بداية ظهور الوعى التاريخى الجديد، وبداية التشكك فى ذلك المفهوم الطوطمى الموروث، وسقوط هذه التقاليد الخرافية الشعبية القديمة فى العصر الجاهلى المتأخر قبيل ظهور الإسلام.

ومهما يكن من أمر، فإن القصة تحكى أن الحرب قامت بين همدان ومراد بسبب اعتداء النسر على طوطمها المقدس كما نرى فى نصها التالى[1]:

قال ابن دريد، أجاز لى عمى عن أبيه عن ابن الكلبى، عن أبيه، قال حدثنى عبادة بن حصين الهمدانى قال: كانت مراد تعبد نسراً، يأتيها فى كل عام فيضربون له خباء ويقرعون بين فتياتهم، فأيتهن أصابتها القرعة أخرجوها إلى النسر فأدخلوها الخباء معه فيمزقها ويأكلها ويؤتى بخمر فيشربه ثم يخبرهم بما يصنعون فى عامهم، ويطير، ثم يأتيهم فى عام قابل فيصنعون به مثل ذلك، وأن النسر أتاهم كعادته فأقرعوا بين فتياتهم فأصابت القرعة فتاة من مراد، وكانت فيهم امرأة من همدان قد ولدت لرجل منهم جارية جميلة ومات المرادى وتيتمت الجارية فقال بعض المراديين لبعض: لو فديتم هذه الفتاة بابنة الهمدانية، فأجمع رأيهم على ذلك، وعلمت الفتاة ما يراد بها، ووافق

(١) المزهر للسيوطى: ص ١٦٣، ١٦٤ ط عيسى البابى الحلبى.

﴿ ٦٩٢ ﴾

ذلك قدوم خالها عمرو بن خالد بن الحصين، أو عمرو بن الحصين بن خالد، فلما قدم على أخته رأى انكسار ابنتها: فسألها عن ذلك فكتمته ودخلت الفتاة بعضَ بيوت أهلها فجعلت تبكى على نفسها بهذه الأبيات لكى يسمع خالها:

أتتنى مراد عامها عن فتاتها *** وتهدى إلى نسر كريمة حاشد
تزف إليه كالعروس، وخالها *** فتى حى همدان عمير بن خالد
فإن تتم الخود التى فديت بنا *** فما ليل من تهدى لنسر براقد(١)
مع أنى قد أرجو من الله قتله *** بكف فتى حامى الحقيقة حارد(٢)

ففطن الهمدانى، فقال لأخته: ما بال ابنتك؟ فقصت عليه القصة فلما أمسى الهمدانى أخذ فرسه، وهيأ أسهمه، فلما اسود الليل دخل الخباء فكمن فى ناحية، وقال لأخته: إذا جاؤوك فادفعى ابنتك إليهم، فأقبلت مراد إلى الهمدانية فدفعت ابنتها إليهم فأقبلوا بالفتاة حتى أدخلوها الخباء ثم انصرفوا.

فحجل النسر نحوها، فرماه الهمدانى، فانتظم قلبه، ثم أخذ ابنة أخته وترك النسر قليلاً وأخذ أخته وارتحل فى ليلته وذلك بوادى حراض، ثم سرى ليلته حتى قطع بلاد مراد، وأشرف على بلاد همدان فأغذت مراد السير فلم تدركه فعظمت المصيبة عليها بقتل النسر. فكان هذا أول ما هاج الحرب بين همدان ومراد حتى حجر الإسلام بينهم، فقال الهمدانى:

وما كان من نسر هجف قتلته *** بوادى حراض ما تغذ مراد(٣)
أرحتهم منه وأطفأت سنة *** فإن باعدونا فالقلوب بعاد

(١) الخود: الفتاة الشابة الجميلة.
(٢) حارد: غاضب.
(٣) هجف: ضخم.

له كل عام من نساء مخاير ✱✱✱ فتاة أناس كالبنية زاد
تزف إليه كالعروس وما له ✱✱✱ إليها سوى أكل الفتاة معاد
فلما شكته حرة حاشدية ✱✱✱ أبوها أبى والأم - بعد - سهاد
سددت له قوسى وفى الكف أسهم ✱✱✱ مراعيس حرات النضال حداد[1]
فأرميه من تحت الدجى فاختللته ✱✱✱ ودونى عن وجه الصباح سواد

وأنشأت الفتاة تقول:

جزى الله خالى خير الجزا ✱✱✱ بمتركه النسر زهقاً صريعا[2]
زففت إليه زفاق العرو ✱✱✱ س وكان بمثلى قديماً بلوغا
فيرميه خالى عن رقبة ✱✱✱ بسهم فأنفذ منه الدسيعا[3]
وأضحت مراد لها مأتم ✱✱✱ على النسر تذرى عليه الدموعا

فهذه الأسطورة ذات دلالة - كما أومأنا - على أن بعض القبائل الجاهلية اعتنقت الطوطمية... تلك الظاهرة المعروفة فى الشعوب البدائية، ولعل مما يؤكد مرور العرب فى جاهليتهم القديمة بهذه المرحلة المميزة للشعوب البدائية ما نراه فى أسماء بعضهم المستمدة من الحيوان مثل أسد وثور وكلب وثعلبة. ولولا الأسطورة السالفة ما عرفنا ذلك عن العرب القدامى لأن كتب التاريخ المعروفة لم تدونه.

وهذا قليل من كثير لا نستطيع أن نستوعبه من الخرافات ذات الصلة بالحيوان فى العصر الجاهلى فلننتقل للخرافات الغيبية.

---

(١) مراعيس: لدنة، شديدة الاضطراب.
(٢) زهقا: هالكاً.
(٣) الدسيعا: ما بين الصدر والرقبة.

الأساطير الغيبية الجاهلية:

كان العرب يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح وأنها تحل فى كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، وكان منها أرواح خيرة، هى الملائكة وأرواح شريرة هى الشياطين. وفى القرآن الكريم: (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون). فكانوا يزعمون أنها بنات الله، وكانوا يعدونها – كأصنامهم – من شفعائهم عند الله وشركائه، وذكر القرآن اعتقادهم فى ذلك إذ يقول جل وعلا: (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون). وفى القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسبا، يقول جل شأنه: (وجعلوا لله شركاء الجن، وخلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون).

ويبدو من اعتقادات العرب قبل الإسلام أن المواضع التى تصيبها الكوارث كانت تصير سكناً للجن، فهى تختار الظلام والخرائب. وبعض العرب كان يعتقد أن بالإمكان رؤية الجن والتحدث إليها بل والتزوج منها. وهى تمثل عندهم فى صور حيوانات ذات شعر كثيف. والحية عندهم بنت الجن، وهى من أكثر الحيوانات وروداً فى القصص الذى يرويه الإخباريون عن الجن، وينسب العرب فى الجاهلية أحداث العواصف والزوابع والأمراض والأوبئة إلى الجن. وقصص الغول من أشهر قصص الجن عند العرب فى الجاهلية؛ بل إن فى قصصهم ما يحكى حكاية زواج رجال معينين منهم.

ولهم فى الجن كثير من الأساطير، عرض لها الجاحظ في الجزء السادس من حيوانه، فتحدث عن مواطنها فى رأيهم وأنها تركب النعام والظباء

والحشرات وأنها تتصور فى صور كثيرة، وتتوالد مع الناس، وقد تستهويهم وتقتلهم أو تخبلهم، ويسمع ليلا عزيفهم وهتافهم. ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو الرئى، ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شفا، ولكل شاعر شيطانه الذى ينفث فيه الشعر، ومنهم السعلاة. والغول وهى من سباعهم.

واعتقاد العرب الجاهليين فى الجن يحتاج إلى دراسة تحليلية لاستخلاص دلالاته الحضارية والنفسية، فكانوا لا يصيدون يربوعا ولا قنفذا ولا ورلا من أول الليل، وكذلك كل شئ يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء فإذا قتل أعرابى قنفذا أو ورلا من أول الليل أو بعض هذه المراكب لم يأمن على فحل ابله، ومتى أصابه شئ حكم بأنه عقوبة من قبلهم(١).

لقد آمن العرب فى جاهليتهم بالجن، ولكنهم بالغوا فى طبيعته، فاعتقدوا أن لكل شاعر شيطانا يقول الشعر على لسانه، فـ «لافظ بن لاحظ» شيطان امرئ القيس، و«هبيد» شيطان عبيد بن الأبرص، و«هاذر» شيطان زياد الذبيانى، و«مسحل» صاحب الأعشى، ومن عادة العرب أنهم كانوا إذا نزلوا فى مكان مخوف استعاذوا برب الوادى من الجن وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقول الله تعالى: «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا» واعتقدوا بأن للجن مساكن يتجمعون فيها، ومنها عبقر، وهذه الاعتقادات تناقلها العرب فى جزيزتهم الصحراوية طوال العصر الجاهلى.

وكانوا يعتقدون أن الأفعى إذا قتلت ثأرت لها الجن، فخوفا من ذلك كان أحدهم إذا قتل أفعى ذرى فوق رأسها روثا وقال «روثة راث ثائرك»

(١) بلوغ الأرب: ٣٥٨/٢.

وقال بعضهم:

طرحنا عليه الروث والزجر صادق ⁂ فراث علينا ثاره والطوائل

وبعض العرب بالغ فى أخباره وأحاديثه، فزعم أنه تزوج الجن، وأنه يسكن إليها فى الهواء وتتراءى له، ومن هؤلاء عامر بن المجفون الملقب بمدرج الريح الذى قال:

لابنة الجنى فى الجول طلل ⁂ دارس الآيات عاف كالخلل
درسته الريح من بين صبا ⁂ وجنوب درجت حينا وطل[١]

وروى أن عمرو بن يربوع تزوج الغول فأولدها بنينا ومكثت عنده دهرا، فكانت تقول له «إذا لاح برق بلادى وهى جهة كذا، فاستره عنى، فإنى إذا لم تستره تركت ولدك عليك، وطرت إلى بلاد قومى» فكان كلما لاح برق بلادها غطى وجهها فلا تبصره ثم غفل عن ذلك مرة فطارت وهى تقول:

أمسك بنيك عمرو إنى آبق ⁂ برق على أرض السعالى آلق

ومن قصص العرب الشائعة عن الجن والشياطين ما يروى عن عنترة أنه شاهد الغول كالشهاب اللامع، يظهر أحياناً ويختفى، وله عينان زرقاوان، ووجه أسود، وأظافر مخيفة، وأحياناً يسمع له دمدمة وجلبة، فتضفى على البقعة وحشة ورهبة يشيب لها الولدان استمع إليه إذ يقول:

والغول بين يدى يخفى تارة ⁂ ويعود يظهر مثل ضوء المشعل[٢]
بنواظر زرق ووجه أسود ⁂ وأظافر يشبهن حد المنجل
والجن تفرق حول غابات الفلا ⁂ بهاهم ودمادم لم تغفل
تلك الليالى لو يمر حديثها ⁂ بوليد قوم شاب قبل المحمل

(١) محاضرات فى تاريخ الشعر الجاهلى لسليمان ربيع ٧٥.
(٢) ديوان عنترة: ص ١٣٨.

وتنسب إلى تأبط شرا أبيات وصف فيها لقاءه للغول وأنه راودها عن نفسها وطلبها بضعها، فلما أبت جللها بسيفه الصارم:

فأصبحت الغول لى جارة ★★★ فيا جارتا لك ما أهولا

فطالبتها بضعها فالتوت ★★★ على وحاولت أن أفعلا

فمن كان يسال عن جارتى ★★★ فإن لها باللوى منزلا

وتروى هذه الأبيات على وجه آخر:

فطالبتها بعضها فالتوت ★★★ فكان من الرأى أن تقتلا

فجللتها مرهفا صارما ★★★ أبان المرافق والمفصلا

وزعموا أن الغول إنما سميت غولا لأنها تتشكل وتتلون في ضروب الصور والثياب فتكون فى شكل ذكر أو أنثى وتغلب عليها صورة الأنثى فإذا تشكلت بشكلها قدرت على كل صورة من صور النساء فكانت طويلة وربعة وقصيرة وسمينة ونحيفة وبيضاء وسمراء إلا فى رجليها فلابد أن تكون رجلى حمار – ولقد شاع ذلك فى زعمهم حتى صار تلون الغول مثلا على النحو الذى نراه فى قول كعب بن زهير بقصيدته الشهيرة (بانت سعاد):

فما تدوم على حال تكون بها ★★★ كما تلون فى أثوابها الغول

وقال أبو المطراب عبيد بن أيوب الأنصارى عن الغول:

فلله در الغول أى رفيقة ★★★ لصاحب قفر خالف وهو معبر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت ★★★ حوالى نيرانا تلوح وتزهر

وحتى يتحقق لها احتيالها على الذين يظهرون لها من بنى آدم، كانت تتظاهر بأنها ترعاهم وتحميهم من غوائل الطريق شأنها فى ذلك شأن الكلب الأمين: قال أبو المطراب.

﴿٦٩٨﴾

وحالفنى الوحوش على الوفاء *** وتحت عهودهن ويا البعاد
وغولا قفرة ذكرا وأنثى *** كان عليهما قطع النجاد

ولكنها سرعان ما توردهم الحتوف، حيث يهلكون فى الوديان أو بين رءوس الجبال حيث تسوقهم إليها وهم غير واعين كأنهم مسحورون... ولهذا فقد ضرب المثل بالغول فى التقلب وقلة الوفاء على نحو ما رأينا فى بيت كعب الذى ذكرناه سابقاً.

ولا يزال أهل مكة يتحدثون عن «الدجبرة» وهى فى سماتها كالغول فرجلاها رجلا حمار إلا أن وجهها وجه امرأة. وهى لا تسير إلا ليلاً. وإذا سارت تتطلق من خطواتها وسوسة الخلاخيل، وربما حملت على ذراعيها طفلاً ملفوفاً فإذا ما قابلها رجل فى الطريق أظهرت أنها تنوء بحمل ذلك الطفل ثم تستنجد بالرجل فيحمله عنها ويسيران، ورويدا رويدا يشعر الرجل أن الطفل يكبر حجمه ويطول... ويطول... فيخاف... ويرتعد. وربما أغمى عليه أو عراه الجنون، وربما قذف بالطفل وفر هارباً بين قهقهات «الدجيرة» وسخريتها.

ومن غريب ما زعموا فيها أنها إذا عرضت لإنسان فتمكن منها وضربها ضربة واحدة ماتت فإذا ثنى الضربة حييت ونسبوا لتأبط شرا قوله يصف معركة بينه وبينها:

ألا من مبلغ فتيان فهم *** بما لاقيت عند رحا بطان
بأنى قد لقيت الغول تهوى *** بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها: كلانا نضو أرض *** أخو سفر، فخلى لى مكانى
فشدت شدة نحوى فأهوت *** لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلادهش، فخرت *** صريعا لليدين وللجران
فقالت ثن. قلت لها: رويدا *** مكانك إننى ثبت الجنان

﴿ ٦٩٩ ﴾

ولـم أنفـك مضطجعـا لديهـا *** لأنظـر مصبحـا مـاذا دهـانى
إذا عينـان فـى رأس دقيـق *** كـرأس الهـر مشـقوق اللسـان
وسـاق مخـدج ولسـان كلـب *** وثـوب مـن عبـاء أو شـنان

وهو يصورها فى هـذه الأبيات تصويراً مخيفاً إذ جعلها كإنسان له عينان ولكنهما فى رأس يشبه رأس الهر وجعل لها لسانا مشقوقاً وساقاً ناقصة التركيب ثم هى بعد ملتفة فى عباءة أو جلد ولا شك أن هذا كله من تهويل الخيال والوهم.

ويروى عن الخليل بن أحمد أن اعرابياً أنشد:

وحافر العير فى ساق مدملجـة *** وجفن عين خلاف الأنس فى الطول

يريد أن يقول أن للغول حافر حمار قد ركب على ساق مملوءة لحما كسيقان النساء الجميلات وأن جفنها قد نسق طولا على حين نسقت كل الجفون عرضا.

واعتقد الجاهليون أن الغول لا تظهر إلا فى الليالى الحالكة السواد، وكذلك فى الأوقات التى يندر فيها السير والتجول، ففى تلك الليالى تبعث من رأسها بنيران وأضواء فيتوهم السائر أنه قريب من أحد مضارب الأعراب فيتجه إليها، وبذلك يضل عن الطريق.

ومن خرافات الجاهليين خرافة «السعلاة» وهى قريبة الشبه من الغول: قال أبو المطراب:

وساخرة منـى ولـو أن عينهـا *** رأت ما رأت عينى من الهول جنت
أبيـت بسـعلاة وغـول بقفـرة *** إذا الليل وارى الجن فيها أرنت

غير أن السعلاة تختلف عن الغول من حيث الساق وشكل العين كما

رأينا فى البيت السابق الذى رواه الخليل بن أحمد عن أحد الأعراب.

وزعموا أن السعلاة(١) اسم لواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار قالوا: «وإنما هذا منها على العبث، أو لعلها تفزع إنساناً فيتغير عقله».

وزعم الجاهليون – ولا زال الناس إلى اليوم يزعمون – أن للجن قدرة على الاطلاع على الغيب، فيخبر عما سيقع للمرء من أحداث... جاء فى كتاب: «أكام المرجان فى أحكام الجان» أن أحد الأعراب قال: «خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بواد يقال له وادى عوف فعرسنا واستيقظت فى بعض الليل فإذا أنا بقائل يقول:

يا رجل عنز انهقى نهيقا ★★★ لن نترك السبب والطريقا

وزعموا أن من الجن ما هو على جانب من الوفاء والمروءة والقدرة على وصف الدواء لمن هو فى حاجة إليه.. فمن ذلك ما روى عن النضر بن عمرو الحارث قال: «إنا كنا فى الجاهلية إلى جانب غدير فأرسلت ابنتى بصحيفة لتأتينى بماء فأبطأت علينا وطلبناها فأعيتنا فيئسنا منها.. قال: والله إنى جالس ذات ليلة بفناء مظلتى إذ طلع على شبح فلما دنا منى إذا ابنتى. قلت: ابنتى؟ قالت: نعم ابنتك. قلت: أين كنت أى بنية؟ قالت: أرأيت ليلة بعثتنى إلى الغدير، أخذنى جنى فاستطار بى فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين فريق من الجن حرب فأعطى الله عهدا إن ظفر بهم أن يردنى إليك فإذا هى قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب لحمها وأقامت عندنا فصلحت فخطبها ابن عمها فزوجناها له. وقد كان الجنى جعل بينه وبينها أمارة إذا رابها ريب أن تدخن له.. وأن ابن عمها ذاك عيَّب عليها وقال جنية شيطانة. ما أنت بإنسية.. فدخنت فناداه مناد: مالك ولهذه؟ لو كنت تقدمت إليك لفقأت عينك،

﴿ ٧٠١ ﴾

رعيتها فى الجاهلية بحسبى وفى الإسلام بدينى.. فقال له الرجل: ألا تظهر لنا لنراك؟ قال: ليس لنا ذاك. إن أبانا سأل لنا ثلاثا: أن نَرى ولا نُرى، وأن نكون بين أطباق الثرى، وأن يعمر أحدنا حتى تبلغ ركبتاه حنكه ثم يعود فتى.. فقال ابن عمها: ألا تصف لنا دواء حمى الربع؟ قال: بلى. قال: ما رأيت تلك الدويبة على الماء كأنها عنكبوت؟ قال: بلى قال: فخذها ثم اشدد على بعض قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى. ففعل.. قال: فكأنه نشط من عقال»..

وزعموا أن من الجن ما هو شديد العداوة للإنسان فهو حين يراه يستدرجه إلى معركة يصرعه فيها، وربما قضى كل منهما على الآخر... وذلك مثلما حدث بين جن اسمه «شق»، وكان على صورة إنسان وبين أعرابى اسمه علقمة بن صفوان.. فقد خرج علقمة فى إحدى الليالى ليتحصل على مال كان له بمكة؛ فما إن وصل إلى مكان يعرف «بحائط حرمان» حتى ظهر له الجن المعروف باسم «شق» فخاطب علقمة بن صفوان بقوله:

علقـــم إنـــى مقتـــول *** وإن لحمـــى مـــأكول
أضربهـــم بالمســـلول *** ضـــرب غـــلام مشـــمول
رحـب الـذراع بهلـول

فقال علقمة:

شـــق مـــالى ومـــالك *** أغمـــد عنـــى منصلـــك
تقتـل مـن لا يقتلـك؟

فقال شق:

علقـــم غنيـــت لـــك *** كيمـــا أبيـــح معقلـــك
فاصبر لما قد حم لك

﴿٧٠٢﴾

فضرب كل منهما صاحبه فخرا ميتين...

وأحياناً يشفق الجن على حمق الإنسان فلا يصرعه وإن هاجمه واعتدى عليه فمن الأساطير ما تروى أن رجلا من كلب اسمه «مزين»، كان له أخوان أكبر منه، أحدهما اسمه مرارة والثانى اسمه مرة. وكان مرة لصا فاتكا حتى إن عشيرته لقبته «بالذئب» وحدث أنه خرج ذات يوم للقنص قريباً من جبل يقال له «أبلى»، وبينا هو يسعى وراء صيده اختطفه الجن ووصل الخبر إلى أهله.. فما كان من مرارة إلا أن انطلق فى إثر أخيه لينقذه من براثن الجن فلما وصل إلى نفس المكان اختطفه الجن هو الآخر.. وقد وقع كل هذا بينما كان مرين بعيداً عن عشيرته فلما قدم وبلغه ما أصاب أخويه: أقسم ألا يشرب خمرا ولا يمس رأسه غسل حتى يعثر على أخويه. فأخذ قوسه وأسهمه وأسرع إلى جبل أبلى حيث هلك أخواه وظل مقيماً به سبعة أيام وعينه لا تقع على شئ وفى اليوم الثامن رأى ظليما (نوع من الظباء) فرماه بسهمه فأصابه ثم أخذه ونزل به من الجبل فلما آذنت الشمس بالأفول بصر بشخص قائم على صخرة ينادى:

يا أيها الرامى الظليم الأسود *** تبت مراميك التى لم ترشد

فأجابه مرين:

يا أيها الهاتف فوق الصخره *** كم عبرة هيجتها وعبره
بقتلكم مرارة ومره *** فرقت جمعا وتركت حسره

فاختبأ الجن قطعا من الليل، فى أثنائها أصابت مرين حمى فذهب فى النعاس، فجاءه الجن وحمله إلى مملكته، فلما أنتبه مرين قال له الجن: ما أنامك وقد كنت حذرا؟ فقال: الحمى أضرعتنى (أى غلبتنى على أمرى)...

﴿٧٠٣﴾

فلما كان فى وجه الصبح أخذه الجن إلى حيث يعرف طريقه إلى عشيرته وخلى سبيله؛ فقال مرين بعد أن وصل إلى قومه:

ألا من مبلغ فتيان قومى *** بما لاقيت بعدهم جميعا
بأنى قد وردت بنى حُبَي *** وعاينت المخاوف والقطيعا
غزوت الجن أطلبهم بثأرى *** لأسقيهم به سما نقيعا
تعرض لى ظليم بعد سبع *** فأرميه فأتركه صريعا
وكنت إذا القروم تعاورتنى *** جرئ الصدر معتزما منيعا
بنى لى معشرى وجدود صدق *** بذروة شامخ بيتا رفيعا
وعزا ثابتا وظلال مجد *** ترى شم الجبال له خضوعا

ولم يقف حالهم فى الجن عند هذا الحد فى الترائى لهم والتشكك بل زعموا كما قلت سابقاً أن لهم مراكب يركبونها منها القنفذ والأرنب والغزال وأنهم سمعوا عزيفهم وأخافوا نازليهم.

والأعجب من هذا أنهم زعموا - كما رأينا فى الشواهد التى مرت بنا - أنهم عاشروهم. والأكثر عجبا أنهم زعموا أنهم أصهروا إليهم أيضا.

بل إنهم زعموا أن من قبائل العرب من تناسلوا منهم وقد زعموا أن لهم بلادا فى جزيرة العرب يعمرونها لا يقربها قارب إلا خبل أو اتخذوه أسيرا أو قتلوه لساعته وأن من مدنهم عبقر التى ينسبون إليها كل شئ فائق الصنعة وكل غريب الشأن من الناس بل كل ما أرادوا تميزه بين أنواعه من المعانى ومن ذلك قول الأعرابى يشكو آخر: ظلمنى والله ظلما عبقريا.

ومن تمييز الرجل على سائر الناس قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمر رضى الله عنه (فلم أر عبقريا يفرى فريه).

﴿ ٧٠٤ ﴾

وفى ضيافتهم وأيوانهم إلى نيران القوم يقول سمير بن الحارث الضبى:

أتوا نارى فقلت منون قالوا *** سراة الجن قلت عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم *** زعيم نحسد الإنس الطعاما
لقد فضلتموا بالأكل فينا *** ولكن ذاك يعقبكم سقاما

وفى أكلهم ونوعه كلام كثير لا داعى لتفصيله...

وأما أرضهم فتزعم العرب - كما أشرت سابقا - أنها بلاد (وبار) التى أهلكها الله وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجرا وأطيبها ثمرا وأكثرها حبا وعنبا ونخلا وموزا فان دنا منها انسان حسوا فى وجهه التراب فان رجع تركوه وإن لم يرجع خبلوه وربما قتلوه واسم هذه البلاد أيضاً (الحوش) فإذا قالوا إبل حوشية فانما يعنون أنها من نسل إبل الجن.

وفى ركوبهم الظباء والأرانب والثعالب وغيرها من الحشرات والهوام يسأل ابن الاعرابى اللغوى أعرابياً فيقول أترى الجن تركبنا؟ فقال الأعرابى أحلف بالله لقد كنت أجد فى الظباء التوقيع فى ظهورها والسمة فى آذانها من أثر الركوب.

وأكثر من يتحدث عن الجن من شعراء العرب هم صعاليكهم وفتاكهم الذين يبعدون فى الأرض ويطرقون ما لا يطرقه غيرهم من النواحى فيعرض لهم ما يتصورون به الجن على ما وصفنا ولعل للكذب نصيبا لما يقولون ما داموا لا يجدون من يغير عليهم قولهم. ومن هؤلاء عمرو بن براق والشنفرى والسليك بن السلكة وتأبط شرا الذى ذكر صاحب الأغانى أنه أعدى ذى رجلين وأنه كان إذا جاع لم تقم له قائمة فكان ينظر إلى الظباء فينتقى على

نظره أسمنها ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه ويشويه ويأكله وذكر أنه بات ليلة ذات ظلمة وبرق ورعد فى قاع صفصف يقال: رحى بطان فلقيته الغول فما زال يقاتلها وهى تراوغه وتلتمس منه غرة فلا تقدر عليه حتى تمكن من قتلها وأقام عليها ليلته حتى أصبح فقال:

ألا من مبلغ فتيان فهم ...... إلى آخر الأبيات التى ذكرناها

وللعرب كلام كثير فى الغيلان والشياطين والمردة والجن، والقطرب والغدار، وهو نوع من الأنواع المتشيطنة، وقالوا أنه ربما يلحق بالإنسان فينكحه فيدود دبره فيموت، وربما يتوارى للإنسان فيذعره، ومن العرب من إذا ظهر له ذلك لا يكترث به لشهامة قلبه، وشجاعة نفسه.

وهناك أمران مهمان يتصلان باساطير العرب التى رددوها فى أدبهم عن الجن، وهما:

١- الكهانة والكهان أصحاب ما يعرف فى النثر الجاهلى باسم «سجع الكهان».

٢- شياطين الشعراء الذين أشرنا إليهم إجمالاً فيما سبق.

أما الكهنة الجاهليون فكانوا يدعون معرفة الغيب وأنه سخر لهم طائف من الجن يسترق لهم السمع فيعرفون ما كتب للناس فى ألواح الغد. وممن عرف بذلك سطيح الذئبى وشق بن مصعب الأنمارى وعوف بن ربيعة الأسدى وسلمة الخزاعى وسواد بن قارب الدوسى وعزى سلمة. ونجد بجانب الكهنة كاهنات مثل الشعثاء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة ذى الخلصة. وفى أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق ببيوت الأصنام بغايا، وكانوا سببا فى ثورة بحضر موت قضى عليها أمية بن أبى المهاجر فى

﴿٧٠٦﴾

عهد أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه.

وهناك أساطير عديدة لعب فيها الكهنة دورا ملحوظا، ومن هذا النوع من الأساطير الجاهلية تلك الأساطير التى كانوا ينسجونها حول ما يصيب الأمم من أحداث جسام وكوارث تؤدى إلى تدميرها وزوال شأنها وتشتت أهلها فى الآفاق.. وعماد هذا النوع من الأساطير الغيبية أمران:

١- تأويل الأحداث الجارية. ٢- تأويل الأحلام.

وكان هذا التأويل فى عرف الجاهليين لا يتوافر إلا للكاهنات.. ولعل أسطورة انهيار مملكة الحميريين باليمن وتفرق أهلها بين أصقاع شبه الجزيرة العربية هى أحسن ما تمثل به فى هذا المقام للأسطورة فى النثر الجاهلى.

وخلاصة هذه الأسطورة أن «طريفة» الكاهنة رأت فى نومها حلما مزعجا، حيث رأت أن ثمة سحابة انتشرت فوق أرض اليمن وقد تفجرت بالرعود والبروق والصواعق التى أحرقت كل ما صادفها فوق الأرض.. فلما قامت طريفة من نومها مذعورة مفزعة صارت تقول: «ما رأيت مثل اليوم. قد أذهب عنى النوم. رأيت غيما أبرق وأرعد طويلا. ثم أصعق فما وقع على شئ إلا أحرق. فما بعد هذا إلا الغرق»... وحين شاهد أهلها ما أصابها من رعب أخذوا يطمئنونها ويخففون عنها؛ فلما هدأت ثائرتها سألت عن الملك عمرو بن عامر فعلمت أنه فى جلسة أنس وطرب فى حديقته وبين جواريه الحسان. فانطلقت إلى قصر الملك يتبعها وصيفها «سنان»..

وحدث عند خروجها من باب بيتها أن وقعت عينها على ثلاث مناجد (دواب تشبه اليرابيع توجدن بأرض اليمن) منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن. فلما رأت طريفة فعل اليرابيع جلست هى الأخرى

﴿٧٠٧﴾

ووضعت يدها على عينها وقالت لوصيفها: إذا ذهبت هذه المناجد عنا فأعلمنى.. فلما ذهبت أعلمها فاتخذت سبيلها مسرعة إلى القصر ولما اقتربت من حديقته اعترضتها فتاة صغيرة خرجت منها سلحفاة انقلبت على ظهرها عندما بلغت الطريق وحاولت أن تعود إلى وضعها مستعينة بذنبها فكانت تثير التراب فوق بطنها وجنبها وتقذف بالبول من شدة تقلبها. وانتظرت طريفة حتى عادة السلحفاة إلى الماء بعد أن نجحت فى أن تتقلب على بطنها.. وبعدها دخلت الحديقة إلى حيث مجلس عمرو وكان ذلك فى ساعة الظهيرة والحر شديد والشجر يتمايل بعنف بغير أن تكون هناك ريح تثيره.. فلما رآها عمرو صرف الجوارى حياء منها ثم قال: هلمى يا طريفة إلى الفراش... فاتخذت سمت الكهانة ووقارها وطفقت تقول: والنور والظلماء. والأرض والسماء. إن الشجر لتالف. وسيعود الماء لما كان فى الدهر السالف.. فقال عمرو: من خبرك بهذا؟ قالت: أخبرنى المناجد بسنين شدائد يقطع فيها الولد والوالد. قال: ما تقولين؟ قالت: أقول قول الندمان لهفا، قد رأيت سلحفا، تجرف التراب جرفا، وتقذف بالبول قذفا، فدخلت الحديقة فإذا الشجر يتكفا.. قال عمرو: وما ترين ذلك؟ قالت: هى داهية ركيمة، ومصائب عظيمة، لأمور جسيمة.. قال: وما هى؟ ويلك.. قالت: أجل، إن لى الويل، وما لك فيها من نيل، فلى ولك الويل مما يجئ به السيل.. فذهل عمرو من تلك النبوءات الرعيبة وقال: ما هذا يا طريفة، قالت: هو خطب جليل، وحزن طويل، وخلف قليل، والقليل خير من تركه.. قال عمرو: وما علاقة ذلك؟ قالت: تذهب إلى السد فإذا رأيت جرذا يكثر بيديه فى السد الحفر ويقلب برجليه من الجبل الصخر فاعلم أن النقر عقر وأنه وقع الأمر.. قال: وما الأمر الذى يقع؟ قالت: وعد من الله نزل فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل..

وذهب عمرو إلى السد ليتأكد من صدق نبوءة طريفة، وفعلا وجدها صادقة فقد شاهد الجرذ وهو يعبث بالسد ويقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا.. فلما عاد إلى طريفة ليخبرها بما شاهد قال:

أبصرت أمرا عادنى منه ألم ✱✱✱ وهاج من هول برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم ✱✱✱ أوتيس مرم من أفاريق الغنم
يسحب صخرا من جلاميد العدم ✱✱✱ له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحلا من الصخر قصم ✱✱✱ كأنما يرعى حظيرا من سلم

فقالت له طريفة: إن من علامة ما ذكرت لك أن تجلس فى مجلسك بين الجنتين ثم تأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فإنها ستمتلئ بين يديك من تراب البطحاء من سهلة الوادى ورمله، وقد علمت أن الجنان مظلة ما يدخلها شمس ولا ريح.. فلما وقع ذلك لعمرو ذهب إلى طريفة وقال: ومتى ترين هلاك السد؟ قالت: فيما بينك وبين السبع سنين.

قال: ففى أيها يكون؟ قالت: لا يعلم ذلك إلا الله تعالى ولو علمه أحد لعلمته ولا يأتى عليك ليلة فيما بينك وبين السبع سنين إلا ظننت هلاكه فى غيرها أو تلك الليلة..

وصار عمرو يفكر فى سبيل للنجاة من الكارثة المقبلة وأخيراً استطاع بالاحتيال والمخادعة أن يغرى قومه بشراء ممتلكاته... ولما اكتشف الناس سر خطته واعتزامه الهرب بأمواله قبل أن يدهم البلاد سيل العرم فيهلكها ذهبوا إليه ليشاوروه فى مصيرهم، وكان عنده أخوه عمران الكاهن الذى نصحهم بضرورة الجلاء قبل أن يحل خطب السيل؛ وكان مما قاله لهم: «قد رأيت أنكم ستمزقون كل ممزق، ويباعد بين أسفاركم، وإنى أصف لكم البلدان فاختاروا أيها شئتم فمن أعجبه منكم صفة بلد فليصر إليها، ومن كان يريد الراسيات فى

الوحل المطعمات فى المحل فليلحق بيثرب ذات النخل - وهى المدينة، وكان الذين سكنوها الأوس والخزرج - ومن كان يري منكم الخمر والخمير والديباج والحرير والأمر والتدبير فليلحق ببصر وحفير - وهى أرض الشام، فكان الذين سكنوها غسان ومن كان منكم يريد الثياب والخيول العتاق والكنوز والأرزاق فليلحق بالعراق - وكان الذين لحقوا بالعراق مالك بن فهم الأزدى وولده.

هذا عن الكهانة والكهان الجاهليين وأصداء الأسطورة فى أسجاعهم.

وأما شياطين الشعراء فقد قالوا قديماً أن لكل شاعر شيطانا ينطق الشاعر عن هواه ويحدث بوحيه وقد اتسع هذا الخيال عندهم حتى عرف هؤلاء الشياطين بأسماء قرنت إلى أسماء الشعراء وحتى أفتخر كل شاعر بقوة شيطانه وأنه رجل قوى الشكيمة على حين يجعل شياطين غيره اناثاً.

وهذا التصور راجع إلى تصورهم الأول للجن ونسبتهم الغرائب إليهم واثبات علاقتهم ببنى آدم فحين رأوا الشاعر انسانا يختلف فى أطواره عن معاشريه وينزع بفكره إلى أودية لم يعتادوا الخوض فيها وحين رأوا لكلامه فعل الخمر وتأثير السحر وأنه إن أراد تقبيح الحسن أدخل على النفوس الوهم بقبحه وان شاء تحسين القبيح أوهم العقول بحسنه فبان رائعا معجبا، وجميلا فاتنا وأنه إذا شاء أوغر الصدور فحكت فيها الحزازات واشتعلت من تأثيرها نار الحرب ثم إذا شاء أطفأ هذه النار التى ألهبها وأنام هذه الفتنة التى أيقظها وأنه هو الذى جمع فى قلب واحد بين الفتك والنسك والعهر والطهر وكان عابدا متخشعا ثم طامعا متطلعا وقانعا متعففا ثم جبارا متصلفا وأنه هو رب الحكمة يرسلها نور هدى.. والكلمة الفاجرة يجعلها شرك عماية وغواية وأنه

القادر على ما شاء من برهان وبهتان.. ولما كان هذا شأن الشعر وكأن فيه انسانا كشيطان توهموا أن روح ذلك الشيطان لابسته وقارنته فنطق بهواها وأدى فحواها.

وقد سموا من هؤلاء الشياطين الشنقنان والشيصبان وزعموا أنهما رئيسان من آباء القبائل – قال: حسان فى جاهليته يعزو إلى شيطانه الشيصبان أنه قائل بعض شعره:

إذا ما ترعرع فينا الغلام ✱✱✱ فليس يقال له من هوه
وان لم يسد قبل شد الازار ✱✱✱ فذلك فينا الذى لا هوه
ولى صاحب من بنى الشيصبان ✱✱✱ فطورا أقول وطورا هوه

وقال ابو النجم:

إنى وكل شاعر من البشر ✱✱✱ شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وقال غيره:

إنى وإن كنت صغير السن ✱✱✱ وكان فى العين نُبُوٌّ عنِّىٌ
فإن شيطانى كبير الجن

وقد ذكرت فيما مضى أن من شياطين شعرائهم لافظ بن لاحظ شيطان امرئ القيس وهبيداً شيطان عبيد بن الأبرص وهو الذى قيل فيه من عبيد لولا هبيد وهاذر بن ماهر صاحب زياد الذبيانى ومسحل صاحب الاعشى وفيه يقول حين هاجاه جهنام.

دعوت خليلى مسحلا ودعوا له ✱✱✱ بجهنام يدعى للهجين المذمم

ومن العجيب أن هذا الاعتقاد ظل سارياً حتى بعد الإسلام فهناك مثلاً هميم شيطان الفرزدق وقيل أن اسم شيطانه عمرو – ومن فكاهات العرب فى

هذا المقام ما ذكره أبو زيد صاحب جمهرة أشعار العرب أن الفرزدق أتاه فتى فأنشده:

ومنهم عمرو المحمود نائله *** كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق ثم قال له – يا ابن أخي إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما (الهوبر) والثانى (الهوجل) فمن انفرد به الهوجل فسد شعره وأنهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان الهوبر معك في أوله والهوجل في أخره ثم ما زال بالفتى حتى عاهده ألا يقول شعرا أبدا.

وحرى بالذكر: أن المسعودى فى مروج الذهب ذكر أن من قول الجن:

وقبر حرب بمكان قفر *** وليس قرب قبر حرب قبر

ويستدل على ذلك بشيئين أحدهما الرواية وثانيهما ألا ينشده أحد ثلاث مرات متواليات الا تتعتع به.

أوهام العرب عن الجن والشياطين دوافعها وأثرها في الأدب:

أما دوافع هذه الأوهام، فالظاهر أن الظواهر الطبيعية والبيئية فى جزيرة العرب هى التى أوجدت ذلك فالقفار الموحشة، والصحراء الواسعة، تضفى على سالكها رهبة عظيمة، تجعله يتوهم ويتخيل، فيزداد رهبة، فيتجسم الخيال صوراً وهمية مرئية، ويعيش الإنسان فترة فى عالم آخر، يفقد فيه شعور الإحساس المادى الطبيعى، وتنطلق الإحساسات الكامنة تخلق تلك الصور من نسج الوهم والخيال مجسدة، وعند اختفاء المؤثر وزوال تلك الفترة تعود إلى النفس طبيعتها، فلا يشك مطلقاً فيما رآه، وكأنه حقيقة مثلت لناظريه، فالصورة طبعت فى الذهن وكثيراً ما تتتابع الصور المتخيلة، لتشكل حوادث

متتابعة، تغرس فى نفس الإنسان حقيقة ما تخيل، فيتصورها كأنها فى عالم الحقيقة والواقع، وهذا يشبه ما يحدث للنائم فى حلمه عندما يتخيل فتاة جميلة، فتملى العواطف المتخيلة على الإحساسات المادية، شعوراً شبه ملموس، فتشترك تلك العواطف والأحاسيس وتتشابك فينتج تصور شبه حقيقى، فيتهيج النائم تماماً كالحقيقة الواقعة، ولكن كل ما حدث فى عالم الوهم والخيال، وهكذا الرجل الذى يتخيل له زواج الجن أو مصارعتهم كل ذلك فى واقع الخيال وليس من الحقيقة فى شئ على الرغم من النتائج المادية التى قد تلمس كالشعور بالإعياء بعد المصارعة الخيالية، فالإعياء حقيقة لأن الأعصاب أجهدت حقا بواقع التصور الخيالى.

قال المسعودى: «إن ما يتراءى للعرب إنما هو يعرض لها من قبل التوحد فى القفار، والتفرد فى الأودية، والسلوك فى المهامه والمروراة الموحشة[1]» لأن الإنسان إذا صار فى مثل هذه الأماكن وتوحد تفكر، وإذا هو تفكر وجل وجبن، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام الخادعة، فصورت له الأصوات، ومثلت له الأشخاص، وتوهم المحال، كنحو ما يعرض لذوى الوسواس، وهذا لا يمنع كون الجن مخلوقات موجودة وأنها تتناسل وتتكاثر لإخبار القرآن الكريم بذلك، ولكن المستبعد مشاهدتها على نحو ما ذكر من تلك الأخبار والقصص الأسطورية.

وقال النظام المتكلم فيما رواه تلميذه الحاحظ عنه:

«أصل هذا الأمر لا ابتداؤه أن القوم لما نزلوا ببلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ومن انفرد وطال مقامه فى البلاد والخلاء والبعد عن الإنس

(١) مروج الذهب: ١/٤٠.

استوحش ولا سيما مع قلة الاشتغال والمذاكرين والوحدة لا تقطع أيامهم الا بالمنى أو بالتفكير والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة وقد ابتلى بذلك غير حاسب كأبى ياسر ومثنى ولد الغنافر وأخبر الأعمش أنه فكر فى مسألة فأنكر أهله عقله وحموه وداروه وقد عرض ذلك لكثير من الهند وإذا استوحش الانسان مثل له الشئ الصغير فى صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنا وانتقضت أخلاطه فيرى ما لا يرى ويسمع مالا يسمع ويتوهم الشئ الصغير الحقير أنه عظيم جليل ثم جعلوا ما تصور لهم فى ذلك شعرا تناشدوه وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيمانا ونشأ عليه الناشئ ونابه الطفل فصار أحدهم إذا توسط الفيافى واشتملت عليه الغيطان فى الليالى الحنادس فعند أول وحشة أو فزعة وعند صياح بوم أو مجاوبة صدى رأى كل باطل وتوهم كل زور. وربما كان فى الجنس وأصل الطبيعة نفاخا كذابا وصاحب تشنيع وتهويل فيقول فى ذكر الشعر على حسب هذه الصنعة فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها».

وقد نقلنا هذه العبارة برمتها ليعلم رجال التربية وعلم النفس أن القدماء لم يتركوا لأفذاذ هذا العلم المحدثين سببا من أسباب الخوف ولا حركة من حركات النفس إلا شرحوها وتغلغوا فى تعليلها إلى أبعد حد وقد تكفل الشاعر عبيد بن أيوب وكان جوالا فى مجاهل الأرض بشرح أسباب الخوف وما ينشأ للناس من أوهام فقال:

لقد خفت حتى لو تمر حمامة ٭٭٭ لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل أمن قلت هذى خديعة ٭٭٭ وان قيل خوف قلت حقا فشمر
وخفت خليلى ذا الصفاء ورابنى ٭٭٭ وقيل فلان أو فلانة باحذر
فلله در الغول أى رفيقة ٭٭٭ لصاحب قفر خائف متنظر

﴿ ٧١٤ ﴾

وأما أثر هذه الأوهام فى الأدب فليس غريبا بعد هذا أن نرى شعر العرب بل كلامهم كله يمتلئ بذكر الجن والسعالى والغيلان والتشبيه بحالاتهم فى الحدة والنشاط والتلون وعموم الغرابة فى حسن أو قبح أو طول أو غير ذلك ووصف الإبداع فى بناء ونسج ثوب بأنه من عمل هؤلاء وقد استفاض الأدب العربى بهذه المعانى وتلك الأقيسة قديما وحديثا قال الشاعر يصف حلمه:

فما نفرت جنى ولا فل مبردى *** ولا أصبحت طربا من الخوف وقعا

وقال ابن الجريرى العبدى:

إنس إذا أمَنوا جن إذا فزَعوا *** مُرزءون بهاليلٌ إذا حشَدوا

وقال العرجى: (من نسج جن مثله لم ينسج).

وقال المقنع الكندى:

وفى الظعائن والأحداج أملح من *** حل العراق وحل الشام واليمنا
خيولهم جنية من نساء الانس أملح من *** شمس النهار وبدر الليل إذ قرنا

وقال زهير يصف الفرسان على خيولهم:

عليهن فتيان لجنة عبقر *** يهزون بالأيدى الوشيج المقوما

وقال البحترى فى ايوان كسرى:

ليس يدرى أصنع إنس لجن *** سكنوه أم صنع جن لإنس

وقال البحترى فى وصف بركة المتوكل:

كأن جن سليمان الذين وُلّوا *** إبداعها فأدقوا فى معانيها

والقرآن الكريم وقد جاء يخاطب العرب بلغتهم ويؤنسهم بمثل قولهم يومئ إليهم بكناياتهم وقد أكبر من بناء القول على هذا الزعم، فإذا أراد أن

يبالغ فى بشاعة شئ حتى لا تكاد تفتح عليه العيون قال فى وصف شجرة جهنم (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وإذا أراد أن يصور طاعم الربا يوم القيامة كان أبلغ ما يصوره به أن يجعله كهذا الذى مسه الشيطان فصار يصرعه كلما قام ويجد له كلما نهض فقال تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) وبمثل هذا التصوير قال على لسان نبيه أيوب عليه السلام (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) وقال تعالى فى وصف نساء الجنة (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وبمثل هذا التصوير جاء قوله تعالى: (أو كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران).

الأساطير الجاهلية الإنسانية:

بقى أن نتحدث عن الأساطير الجاهلية الإنسانية، ونقصد بها تلك التى يكون أبطالها من بنى آدم: فلا تدخل للجن أو للشياطين أو لأية مخلوقات أخرى فيها بالرمز أو بالتأويل.. ومن هذه الأساطير ما كان أصلها يونانيا أو فارسياً أو هندياً وذلك بحكم الصلات التى كانت بين شبه الجزيرة العربية وبين الأمم الحضارية التى كانت فى عصرهم. ومنها أساطير ذات أصل عربى خالص وإن صقلها مؤلفوها بصقال حضارى تظهر فيه رحابه الرؤية وطرافه المعانى.. ومن هذه الأساطير: أسطورة الزباء، وأسطورة الخورنق والسدير، وأسطورة يومى النعمان وحكاياتهم الخرافية عن سنمار ولقمان بن عاد، وهى خرافات ممتزجة بالأخبار التاريخية.

أسطورة الزباء وأصداؤها فى الأمثال الجاهلية:

الزباء امـرأة اشـتهرت بالدهـاء والخبث كمـا اشـتهرت بالجمـال الـذى استهوى أمراء شبه الجزيرة العربية.. ومن الروايات ما جعلـت الزبـاء عربيـة ذات نسب عربى أصيل، فقيل إنها ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر.. ومن الروايات ما جعلتها رومانية تتكلم العربية..

وكانت الزباء ملكـة علـى الشـام والجزيـرة (المنطقـة المحصـورة بيـن دجلة والفرات).. ولثروتها وجمالهـا وقـوة دولتهـا تقـدم لخطبتهـا كثـيرون مـن أمراء العرب ومنهم جذيمة الأبرش.. ويبـدو أنهـا لـم تكـن تسـتريح إليـه لأنهـا كانت تراه خطرا عليها، ولذلك فإنها عزمت علـى التخلـص منـه، فكتبـت إليـه حين عرض عليها الزواج تقول: «إنى فاعلة ومثلك من يرغب فيه فـإذا شـئت فاشخص إلى».. فجمع جذيمة أصحابه وعـرض عليهـم الأمـر فأشـار البعـض عليه بقبول الدعوة، بينما حذره البعض منها وكان منهم صديقه قصير بن سعد الذى قال له: «الرأى الراجح عندى أن تكتـب إليهـا فـإن كـانت صادقـة أقبلـت إليك وإلا لم تقع فى حبائلها».. ولكن جذيمة اتبع هواه وأصر على السير إليهـا فقال قصير بن سعد حين رأى إصـراره: «لا يطـاع لقصـير أمـر».. فصـارت مثلا.. وانطلق جذيمة إلـى مدينـة الزبـاء وعلـى مشـارفها رأى جندهـا الكثيـف فساورته المخاوف وقال: أى قصير ما الرأى، أشـر علـى؟.. فقـال قصـير: إن لقيتك الكتائب فحيتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فـالمرأة صادقـة.. وإن هـم أخذوا بجنبيك ووقفوا دونك فالقوم منعطفـون عليك فيمـا بينهـم وبيـن جنودهـم فاركب «العصا» (فرس كانت إلـى جانبـه) فإنهـا لا تـدرك ولا تسـبق».. فلمـا رأى قصير أن الجند قد أحاطوا به ركب هـو «العصـا» ونجـا بنفسـه... وأخـذ

الجنود جذيمة وأدخلوه على الزباء التى استقبلته بسخرية خبيثة.. وأمرت جندها فأجلسوه على كرسى كانت قد أعدته له ثم طعنته بسيفها فقطعت عروق ساقه اليسرى وظل دمه ينزف وتتلقاه هى فى طست من الذهب وقالت له فى تهكم – وهو فى سكرات الموت – : «أى جذيمة لا تضيعن من دمك شيئاً فإنى إنما بعثت إليك لأنه بلغنى أن دمك شفاء من الخبل».. فقال جذيمة: «وما يحزنك من دم أضاعه أهله».. ومات..

أما قصير فإنه لما ذهب إلى قومه أورد الخبر على عمرو بن عبد الجن التنوخى بالحيرة وقال له: «إطلب بثأر ابن عمك وإلا سبتك العرب»؛ فلم يحفل عمرو بما حدث فذهب قصير إلى عمرو بن عدى خال جذيمة فطلب منه مثلما طلب من عمرو بن عبد الجن، فقال عمرو بن عدى: «وكيف لنا بها وهى أمنع من عقاب الجو؟ فقال قصير: أما إذا أبيت فإنى جادع أنفى وأذنى ومحتال لقتلها جهدى فأعنى وخلاك ذم. فقال له عمرو: أنت أبصر وعلىّ معونتك».. فجدع أنفه، فقيل: لأمر ما جدع قصير أنفه، وصارت مثلا.. وأخيراً تمكن قصير من الدخول على الزباء فقالت له حين فوجئت به: من أنت؟ فقال: أنا قصير، لا ورب المشارق والمغارب ما كان على وجه الأرض بشر كان أنصح لجذيمة ولا أغش لك منى حتى جدع عمرو بن عدى أنفى وأذنى، فعرفت أنى لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منى معك.. فقالت: أى قصير، نقبل منزلتك ونصرفك فى بضائعنا.. فكان أن أتجر بمالها، ولكى يبرهن لها على أمانته وحنكته فى التجارة وأنه يستطيع أن يكسب من المال ما لا تتوقعه فإن عمرو بن عدى أمده بالمال الذى يجعلها تثق فيه وفى سداد رأيه...

﴿٧١٨﴾

وفى يوم قال لها: إنه ليس من ملك إلا وهم يتخذون فى مدائنهم أنقابا (أنفاقا)، تكون لهم عددا (أى يهربون منها عند الهجوم عليهم)... فقالت له: أما إنى قد فعلت ذلك.. قد نقبت سردابا وبنيته من تحت سريرى هنا حتى أخرج من تحت الفرات إلى سرير أختى رحيله... ثم خرج قصير بعد أن أوهمها بأنه ذاهب فى رحلة تجارية جديدة.. ثم قصد عمرو بن عدى وأطلعه على سر الزباء: فركب عمرو فى ألف رجل على ألف بعير فى «جوالق». فلما أشرفت القافلة على قصر الزباء سبقها قصير إلى الزباء وقال لها: اصعدى حائط مدينتك وانظرى إلى مالك وتقدمى إلى بوابك فلا يتعرض لشئ من أموالنا فإنى قد جئت بمال صامت...

ولما كانت تأمنه وتثق فى قوله فإنها صعدت وفعلت ما أمرها به... فلما شاهدت الجمال وهى تمشى متثاقلة قالت:

ما للجمال مشيها وئيدا *** أجندلا يحملن أم حديدا؟
أم صرفانا باردا شديدا *** أم الرجال جثما قعودا؟

ودخلت الجمال المدينة وكانت سربا طويلا مما أضجر حارس البوابة فأخرج سيفه وطعن أحد الجوالق فسمع منه صوتا فقال: بشتا... بشتا، وهى باللغة النبطية: فى الجوالق شر..

وخرج الرجال من الجوالق كالمردة يقتلون ويدمرون ويحرقون ويسبون.. فلما رأت الزباء ما حل بها حاولت الهرب من النفق فرأت قصيراً على بابه شاهرا سيفه؛ فحاولت الرجوع فأبصرت عمرو بن عدى يهم لطعنها بسيفه فمصت خاتمها وكان به سم فماتت لساعتها وقالت وهى تجود بنفسها: بيدى لا بيد عمرو فصارت مثلاً يضرب حتى اليوم.

﴿ ٧١٩ ﴾

ومن الخرافات الممتزجة بالأخبار التاريخية حكاياتهم عن عاد، وعن لقمان بن عاد الذى تزوج عدة نساء كلهن خنه فى أنفسهن، فلما قتل اخراهن ونزل من الجبل كان أول من تلقاه صحر ابنته فقتلها وقال: وأنت أيضاً امرأة، وكان قد ابتلى بأن أخته كانت محمقة، وكذلك كان زوجها فقالت لإحدى نساء لقمان: هذه ليلة طهرى وهى ليلتك فدعينى أنام فى مضجعك فإن لقمان رجل منجب فعسى أن يقع على فأنجب، فوقع على أخته فحملت بلقيم، وفى ذلك يقول النمر بن تولب:

لقيم بن لقمان من أخته *** فكان ابن أخت له وابنما
ليالى حمق فاستحصنت *** عليه فغر بها مظلما
فأحبلها رجل محكم *** فجاءت به رجلا محكما[1]

وقد تكون القصة موضوعة لتفسير زواج الأخت الذى كان شائعاً عند كثير من الأمم القديمة، وربما كان له أثر فى التاريخ القديم للجزيرة العربية إذ لاتعدم ظواهر مشتركة فى العادات والمعتقدات والنظم الاجتماعية.

هذا ومن المعتقدات الخرافية الجاهلية فى طب المرضى وعلاجهم من العلل «تعليق الحلى على اللديغ، إذ كانوا يعتقدون أن من تلدغه الأفعى إذا نام سرى السم فى جسمه فيموت، ولهذا كانوا يحتالون عليه لإبقائه ساهرا بقرقعة حلى النساء بين يديه أو يجعلون الحلى فى يده ويحركونها. ووصف النابغة تلك العادة بقوله:

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة *** من الرقش فى أنيابها السم ناقع
يسهر من ليل التمام سليمها *** لحلى النساء فى يديه قعاقع

(١) الحيوان للجاحظ: ٢١/١.

تناذرها الراقون مــن سـوء سـمها ⁂ تطلقـه طـورا وطــورا تراجــع(١)

وقال بعض بنى عذرة يشبه أثر اللوعة فى نفسه بالسليم المحلّى:

كــأنى ســليم نالـــه كلــم حيـــة ⁂ ترى حوله حلى النسـاء مواضعـا

وقيل لبعض الأعراب: أتريدون أن يسهر؟ فقال: إن الحلـى لا تسـهر، ولكنها سنة ورثناها. أو لأنهم زعموا أن حلى الذهب تبرئه، وحلـى الرصـاص أو الرصاص يميته.

وكانوا يزعمون أن دم الشريف والسيد والرئيس منهم يشفى من عضة الكلب، وفى هذا يقول شاعرهم:

بنـــاة مكـــارم وأســـاة جـــرح ⁂ دمــاؤهم مــن الكلــب الشــفاء(٢)

ومن معتقداتهم وأوهامهم الخرافية فى مجال الطب أيضاً: ذلك العـلاج الذى أسموه مداواة العر.

والعر هو الجرب، فإذا أصيبت الجمال بهذا الداء، كان العرب يعمدون إلى كى الصحيح ليبرأ السقيم، وقيل إنهم كانوا يكـوون السـليم، حتـى لا يتعلق الداء به، وهذا هو ما يسمى فى عصرنا «بالتطعيم» قال النابغة يشـبه مـا وقـع عليه من ظلم بهذا العلاج:

وكلفنــى ذنــب امـــرئ وتركتـــه ⁂ كذى العر يكوى غيره وهو راتع(٣)

---

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين: ص ٣٠٠، ط دار المعارف بمصر ١٩٢٧م.
(٢) بلوغ الأرب: ٣١٩/٣.
(٣) تاريخ الأدب الجاهلى للجندى جـ ١ ص ١١٠. مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩م.

وقال

كمن يكوى الصحيح يروم برءا *** به من كل جرباء الإهاب[١]

وكان العرب إذا مرض رئيسهم أو ملكهم حملوه على الأعناق وتعاقبته الرجال معتقدين أن ذلك أوطأ له وأسرع إلى الشفاء. فقال النابغة:

ألم أقسم عليك لتخبرنى *** أمحمول على النعش الهمام[٢]

وكان الرجل إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه، فيذهب خدرها فقيل:

على أن رجلى لا يزال خدارها لها *** مقيما بها حتى أجيلك من فكرى

وفى هذا المذهب كان الرجل إذا اختلجت عينه قال «أرى من أحبه» فإن كان غائبا توقع قدومه وإن كان بعيدا توقع قربه فقيل:

إذا اختلجت عينى تيقنت أننى *** أراك وإن كان المزار بعيدا

وقيل إذا اختلجت عينى أقول لعلها *** لرؤيتها تهتاج عينى وتطرف[٣]

وكذلك اعتقدوا أن الأذن إذا حدث فيها طنين فإن أحدا يكون قد ذكره بخير أو بشر، ومن معتقداتهم أن الصبى إذا بثرت شفتاه أو جفنه، حمل منخلا على رأسه ونادى فى بيوت الحى: الحلأ الحلأ[٤]، الطعام الطعام، فتلقى له النساء كسر الخبز وقطع التمر واللحم فى المنخل، يلقى ذلك للكلاب فتأكله فيبرأ كما زعموا، وإن أكل صبى من الصبيان من ذلك الذى ألقاه للكلاب بثرت شفتاه وقيل فى ذلك:

---

(١) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٣٠٥.
(٢) السابق جـ ٣ ص ٢٠.
(٣) السابق جـ ٢ ص ٣٢١.
(٤) الحلا: بقية العلة.

ألا حــــلا شـــــفة مشـــــقوقة *** فقــد قضـــا منخلنـــا حقوقــــه[١]

وكان العرب إذا فقد أحد المعشوقين بالموت فإن الآخر يـأتى إلـى قـبر صاحبه فيأخذ قليلا مـن تـراب قـبره، ثـم يصـب عليـه المـاء ويتركـه قليـلا ثـم يشرب منه حتى يرتوى، فإن تلك الماء تهدئ لواعج ألم الفـراق[٢]، وكذلـك إذا عشق الرجل ولم يسل، وأفرط عليه العشق، حمله رجل على ظهره كما يحمـل الصبى، وقام آخـر فـأحمى حديـده وكـوى بهـا بيـن إليتيـه فيذهـب عشـقه فيمـا يزعمون، فقال أعرابى:

كويتـــم بيـــن رافقـــىَّ جهـــلا *** ونـار القلـب يضرمهــا الغــرام[٣]

ومن عادة عشاقهم أنه إذا غادر الحى يبقى متلفتـا خلفـه حتـى تختفـى بيوتات القوم يفعل ذلك تفاؤلا منه بالعودة فقال بعضهم:

دع التلفت يـا مسـعود وارم بهـا *** وجه الهواجر تأمن رجعة البلـد[٤]

وقال الصمة بن عبد الله بن طفيل بعد مغادرته حـي قومـه حيـث ابنـة عمه التى يهواها:

حننت إلـى ريَّـا ونفسك بـاعدت *** مزارك من ريَّا وشعبا كُما معـا[٥]
تلفت نحـو الحـى حتّى وجدتنـى *** وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعـا

ومن اعتقاداتهم أن صاحب الفرس المهقوع[٦]، إذا ركبه فعـرق تحتـه،

(١) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٣٢٩.
(٢) قصص العرب لمحمد أحمد جاد المولى وزملائه ص ٤١ الطبعة الثانية ١٩٤٦م.
(٣) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٣٢١.
(٤) السابق جـ ٢ ص ٣٢٦.
(٥) السابق جـ ٢ ص ٣٢٧.
(٦) المهقوع: الفرس تكون على كتفه دائرة.

اغتلمت امرأته وطمحت إلى غيره، فقال بعضهم ينبه صاحبه إلى ذلك.

إذا عرق المهقوع بالمرء أنغظت *** حليلته وازداد حرًا عجانها

فأجابه صاحبه:

قد يركب المهقوع من لست مثله *** وقد يركب المهقوع زوج حصان

وللعرب معتقدات خرافية إنسانية ذات طابع إجتماعي ومنها: اعتقادهم بصحة التمائم، وقد دفعهم إليها إيمانهم بالحسد والعين، والتخوف من شرورهما واعتقادهم بسلطة الجن والشياطين على البشر ومقدرتهم على تهيئة الشر، أو جلب الخير والمنفعة، فلجأوا إلى التمائم يعلقونها على صدور الأطفال، أو النساء ليدرأوا شر الحساد، والمخلوقات غير المرئية، وكانوا يتخذون التمائم من الخرز أو عظام الحيوانات أو من الحصى أو من الرمل أو غير ذلك، ولجأوا إلى تسمية أبنائهم بأسماء مستكرهة لنفس الغاية، ومن تلك الأسماء: حشيفان، كليب، جحيش، خنيفس، والإسلام حرم تلك التمائم، لأن الله وحده هو الذى ينفع ويضر، وهو الذى يسأل ويرجى، ومن الممكن أن يكون لتلك التمائم فوائد من الناحية النفسية، فعندما يحمل الإنسان التميمة، يقتنع نفسيا أنه لن يضره شئ، فيطمئن ولا يستسلم للمخاوف، فيندفع فى سبيله إلى غايته، فعنترة – على سبيل المثال – كان كلما وهنت قواه فى حرب جيش الملك النعمان، تذكر التميمة على ساعده من عبلة، فيسترد قواه، ويقاوم أعداءه بجرأة وقوة. أما ما يعلق خوفاً من الحسد فهذا ما يستعمل فى وقتنا الحاضر من تعليق حذوة الفرس على أبواب الأنبية، أو بعض أنواع من الخرز على الممتلكات مثل السيارات وغيرها، فالهدف غير المباشر من ذلك، أن يجذب انتباه الحسود ذلك المعلق فيلهو به عن المقصود، فلا يسدد نظراته الحاسدة إليه، فيتقى شره، والحسد حقيقة واقعة، وأشار إليه القرآن بمثل قوله تعالى:

«ومن شر حاسد إذا حسد». وما دام بعض الناس ما يزالون فى قرننا هذا يعلقون التمائم، فإن العذر للعرب فى جاهليتهم أحق وأجدر هذا هو الأعشى يتحدث عن جمال فتاته الخارق ولجوئها إلى التمائم خوفا من أعين الحساد فيقول:

تتوط التميم وتأبى الغبوق *** من سنة النوم إلا نهارا[1]

ومن التمائم التى اتخذها العرب تعليق كعب أرنب فى رجل الصبى أو يده، أو تعليق جلد مقتول، لمنع إصابة الصبى من عين الحساد، وأما تعليق كعب الأرنب فلاعتقادهم أن الجن لا تقترب من الأرانب لأنها تحيض قال امرؤ القيس:

مرسعة بين أرساغه *** به عسم يبتغى أرنبا
ليجعل فى رجله كعبها *** حذار المنية أن يعطبا[2]

وقال أيضا:

ومنهن سوفى الخود قد بلها الندى *** تراقب منظوم التمائم مرضعا[3]

ولنفس الغاية كانوا يعلقون سن الثعلب وسن الهرة وحيض السمرة فقالت امرأة تصف ولدا ذلك البيت الذى سبق أن ذكرناه:

كان عليه سنة من هرة *** وثعلب والحيض حيض السمرة[4]

وكان بعض العرب فى جاهليتهم لا يعتقدون بتلك التمائم، ومنهم

(١) ديوان الأعشى ص ٩٩.
(٢) مرسعة: أى تميمة مرسعة بن أرساغه.
(٣) السوف: الشم، الخود: المرأة الشابة، قد بلها الندى: أى متطيبة، المختار من الشعر الجاهلى لمحمد سيد كيلانى جـ ٢ ص ١٣٨ ط ٢ سنة ١٩٧٠م.
(٤) محاضرات فى تاريخ الشعر الجاهلى لسليمان ربيع ص ٦٩.

أبو ذؤيب الذى قال:

تنفــض مهـــده وتـــدب عنـــه ⁕⁕⁕ ومـا تغنـــى التمــائم والعكـوف[١]

فإيمان العرب بالحسد واعتقادهم أن بمقـدور المخلوقـات غـير المرئيـة على الضرر والنفع جعلهم يبحثون عن عـلاج لتلك الظواهر، فـاهتدوا إلـى التمائم ليتحصنوا بها ضد المخاوف، وربما تجلب بعض المنـافع عن طريـق الايحاءات النفسية التى توفر القناعات الشخصية بابتعاد الشر وزوال مسببه.

وخوف الجاهليين مـن العين هو الـذى حملهم علـى «العقيقـة» وهـى صوف الجذع أو الشاة، تذبح عند حلق شعر المولود، وكانت العرب تجعل من صوف الجذع فى هذه الحالة تميمة يعلقونها على المولود لدفع العين، وقد أقرّ الإسلام العقيقـة وفصلت القول عنهـا مصـادر الفقـه الإسـلامى ولكــن أبطـل الإسلام تعليق الشعر للتميمة، قال امرؤ القيس بن مالك:

أيـــا هنـــد لا تنكحـــى بوهـــة ⁕⁕⁕ عليـــه عقيقتـــــه أحســـــبا

وكـان الجـاهليون فـى تفـاؤلهم وتشـاؤمهم يربطـون ذلـك بـالظواهر الطبيعية الحركية، ويندفعون فى تحليل تلك الظواهـر تحليـلاً سـاذجاً يعلـل كـل حركة بظاهرة، ومن هنا شاع فيهم زجر الطير، وإثارتها ليستدلوا من حركتهـا على الخير والشر. وكانوا يسمون زجر الطير للاستدلال بصوته وحركته على الحوادث بالعيافة. وقد اشتهر بهـا بنـو أسـد وبنـو لهـب. وكـانوا يتيـامنون بهـا ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة. ولهم فى الطيرة أحاديث كثيرة نسمع صوتها فى أشعارهم.

قال الجاحظ: «وأصل التطير من الطير إذا مر بارحا (ميامنا) وسـانحا

(١) ديوان الهذليين ص ١٠٠.

(مياسرا) أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا.. فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك فى كل شئ.. وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكنّوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم. والغراب أكثر من جميع ما يتطير به فى باب الشؤم»[١].

وقال ابن دريد: «السانح يتيمن به أهل نجد، ويتشاءمون بالبارح، ويخالفهم أهل العالية - يقصد أهل الحجاز - فيتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح»[٢].

وقال أبو جعفر النحاس: السانح عند أهل الحجاز ما أتى من اليمين إلى اليسار، والبارح عندهم ما أتى من اليسار إلى اليمين، وهم يتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح، وأهل نجد بالضد من ذلك، والسانح عند أهل نجد هو البارح عند أهل الحجاز[٣].

وقال باحث معاصر: إنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير، فإن طار يمينا كان له حكم، وإن طار شمالا كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم، ومن ثم سميت الطيرة، أخذا من الطير. فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سانحا وما تياسر منها سموه بارحا، وما استقبلهم منها فهو الناطح، وما جاء من خلفهم فهو القعيد. ومن العرب من

(١) الحيوان للجاحظ: جـ ٣ ص ٤٣٨.
(٢) العمدة لابن رشيق ١٦٣/٢.
(٣) انظر: قصة الأدب فى الحجاز لعبد الله عبد الجبار وآخر: ص ٥١٦ دار مصر للطباعة ١٩٥٨.

يتشاءم بالبارح لأنه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه، ويترك بالسانح. ومن تبرك بشئ مدحه، ومن تشاءم بشئ ذمه[١].

وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب، لأنه لم يكن فى الأرض شئ مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه، حتى إنهم يضربون به المثل فى الشؤم، ولعل ذلك راجع إلى لونه وإلى عمله أو اسمه الذى اشتقت منه الغرابة والاغتراب والغربة، وزعموا أن صوته يوحى بالفراق، وسموه حاتما لأنه يحتم بالفراق[٢].

وللجاهليين فى زجر الطير، وفى التشاؤم بالغراب شعر كثير، فمن ذلك قول لبيد:

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى *** ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقول ابن عامر الهمدانى:

تخبرنى بالنجاة القطاة *** وقول الغراب بها شاهد
يقول: ألا قد دنا نازح *** فداء له الطرف والتالد[٣]

ويقول الأعشى فى مدح: هوذة بن على الحنفى ويصف نساءه يترقبن عودته - إذا ذهب للغزو - فى شوق، ويزجرن الطير فيخبرهن بقرب أوبته فتنام أعينهن على هذا الأمل الجميل:

تخبرهن الطير عنك بأوبة *** وعين أقرت نومها بلقائكا[٤]

(١) العقد الثمين فى أدب الجاهليين للدكتور عبد الجواد المحص: ص ١١ ط الدار المصرية للنشر والتوزيع ١٩٩٩م.
(٢) العمدة: ٢/٢٦٠.
(٣) تاريخ الأدب الجاهلى لعلى الجندى جـ ١ ص ١٠٦.
(٤) ديوان الأعشى ص ١٤١.

ومن الشعراء الجاهليين الذين تشاءموا بنعيق الغراب زهير بن أبى سلمى حيث توجس أن يرتحل عنه الأحبة:

ألقى فراقهم فى المقلتين قذى ★★★ أمسى بذاك غراب البين قد نعقا

ويعلل علقمة بن عبدة موضوع زجر الطير تعليلا نفسياً، فالذى يركن إلى الطيور وزجرها سيمسه الشر حتى ولو كان سالما، لأن اللجوء إلى الزجر فى ذات نفسه، جر الإنسان إلى الشكوك، والشكوك تؤدى إلى الظنون، والظنون تقود إلى الوهم، والوهم يسبب المرض أو الشقاء والمريض فى تلك الحالة، ينظر نظرة شؤم وبؤس إلى الأشياء، ويسدل ثوب الشؤم على البشر المستهتر فيدفعه، فيتراءى له الخير شرا:

ومن تعرض للغربان يزجرها ★★★ علا سلامته - لابد - مشئوم

ومن تطيرهم بالغراب - أيضاً - قول الأعشى يخاطب حبيبته بأنه يتخوف من إغضابها فينعق الغراب بينهما بانقضاء الود والصفاء:

إنى أخاف الصرم منها ★★★ أو من شحيح غرابها[1]

وقال فى مدح إياس بن قبيصة الطائى متسائلا بأى شئ تخبرك الطير الراجعة إلى أوكارها من غراب ينعق للبين أو تيس يمر من يسارك:

ما تعيف اليوم فى الطير الرُّوَّح ★★★ من غراب البين أو تيس برح

وقال عنترة:

يا عبل كم يشجى فؤادى بالنوى ★★★ ويروعنى صوت الغراب الأسود[2]

---

(١) الشحيح: صوت نعيق الغراب، ديوان الأعشى ص ٣٠٣.

(٢) ديوان عنترة ص ٦٩.

﴿ ٧٢٩ ﴾

وقال أيضاً:

ظعن الذين فراقهم أتوقع *** وجرى بينهم الغراب الأبقع
فزجرته ألا يفرخ عشه *** أبدا ويصبح واحدا يتفجع[١]

وقال النابغة يتنبأ بفراق من يهوى اعتماداً على زجر الغراب الأسود فقال:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا *** وبذاك تنعاب الغراب الأسود[٢]
لا مرحبا بغد ولا أهلا به *** إن كان تفريق الأحبة في غد

ولجأ العرب إلى زجر حيوانات وطيور أخرى غير الغربان، كالثعلب والقطاة والصرد، وكذلك كانوا يتشاءمون بمرور الصيد عن يسار الجالس مارا نحو يمينه ويطلقون على ذلك البارح، أما السانح فهو مرور الصيد عن اليمين متجها إلى اليسار فكانوا يتفاءلون به[٣]، وقالت الخنساء:

جرى لي طير في حمام حذرته *** عليك ابن عمرو من سنيح وبارح
فلم ينج صخرا ما حذرت وغاله *** مواقع غاد للمنون ورائح[٤]

ومرت عقاب على أبي ذؤيب، فأوحت إليه بشر، فطلب من صاحبه أن يزجرها:

فقال له وقد أوحت إليه *** إلا الله أمك ما تعيف[٥]
فقال لقد خشيت وأنبأتني *** به العقبان لو أني أعيف

(١) المرجع السابق ص ١٠٣.
(٢) في الأدب الجاهلي ص ٣٠٦.
(٣) انظر ديوان الأعشى ص ٢٨٧.
(٤) ديوان الخنساء ص ١٣.
(٥) ديوان الهذليين جـ ١ ص ١٠١.

وقال لبيد بن ربيعة:

لو كان يزجرها لقد سنحت له *** طير الشماح بغمرة وطعان[1]

ومما روى فى تشاؤمهم من الصرد وهو طائر جارح صغير الحجم «أن غنيا أرسلت رجلا منها يدعى رباحا مع رجل كلابى لعبس لمفاوضتهم على الصلح بعد مقتل شاس بن زهير العبسى وكان مع الرجلين صحيفة فيها طعام، وأيقنا أنهما قد خالفا وجهة القوم، فأوجفا أيديهما فى الصحيفة فأخذ كل واحد منها وضرة ليأكلها مترادفين لا يقدران على النزول فمر فوق رؤوسهما صرد، فصرصر، فألقيا اللحم وأمسكا بأيديهما وقالا ما هذا، ثم عادا إلى مثل ذلك، فأخذ كل واحد منهما عظما، ومر الصرد فوق رؤسهما فصرصر فألقيا العظمين حتى فعلا ذلك ثلاث مرات، فإذا هما بالقوم أدنى ظلم وأدنى ظلام، وقد كانا يظنان أنهما قد خالفا وجهة القوم، فقال صاحبه لرباح: «اذهب فإنى آتى القوم أشاغلهم عنك، وأحدثهم حتى تعجزهم أن يدركوك، فانحدر رباح عن عجز الجمل فأخذ أدراجه، وعدا اثر الراحلة حتى أتى ضفة، فاحتفر مكانها مثل مكان الأرنب فولج فيه ثم أخذ نعليه، فجعل أحدهما على سترته، والأخرى على ضغنه، ثم شد عليهما العمامة، ومضى صاحبه، حتى لقى القوم، فسألوه، فحدثهم وقال، هذه غنى كاملة وقد دنوت منهم، فصدقوه، وخلوا سبيله، فلما ولى رأوا مركب الرجل خلفه، فقالوا: «من الذى خلفك، فقال: لا مكذبة، ذلك رباح فى الأول من السمرات، فقال الحصينان لمن معهما: قفوا علينا حتى نعلم علمه فقد أمكننا الله من ثأرنا. ولم يريدا أن يشركهما فيه أحد، فمضيا ووقف القوم عنهما، قالوا: قال رباح: فإذا هما ينقلان فرسيهما

(١) سنحت: عرضت: طير الشماخ: طير القتال، المنتخب.

فابتدرانى، فرميت الأول فبترت صلبه فانفقر، وطعننى الآخر قبل أن أرميه وأراد السرة، فأصاب الربلة، ومر الفرس يهوى به فاستدبرته بسهم، فرشقت به صلبه منحنى الأوصال، وقد بترت صلبيهما وند فرساهما، فلحقنا بالقوم فأخذ رباح رمحيهما، فخرج بهما حتى أتى رملة، فغرز الرمحين فيها ثم انحدر وطلبه القوم حتى إذا رفع لهما الرمحان لم يقربوهما حتى وجدوا أثر رباح خارجا قد فات[1]، وواضح أن ما حدث هو من قبيل المصادفة، ولو مر عليهما غير الصرد لتطيرا منه ما دامت نفساهما يغشاهما بعض القلق، ولربما مر عليهما طيور كثيرة فلم ينتبها إلا للصرد لحكاية سمعاها أو لقصة حدثت مع غيرهما.

ويظهر أن العربى الجاهلى كان إذا دارت بخلده أفكار الشؤم وسيطرت على مشاعره هواجس الهزيمة، يتطير من أى شئ يلحظه، وإذا كانت نفسه مرحة، استبشر مما يعرض له ويتفاءل به، فالنابغة الذبيانى مثلا فرج للغزو لكنه تطير من جرادة سقطت عليه، فرجع من الغزو أما صاحبه زبان بن منظور الغزارى فلم يأبه بها ومضى فى غزوته.

فظفر وغنم، وعن ذلك قال:

تعلم أنه لا طير إلا *** على متطير، وهى الثبور
بل شئ يوافق بعض شيئ *** أحايينا، وباطله كثير

ويروى أن عبيد الراعى وقف ذات يوم مع ركب بفيفاء قفر، وكانوا يريدون رجلا من تميم، إذ سنحت ظباء سود مذكرة، ثم اعترضت الركب مقصرة فى حضرها واقفة على شأنها، فأنكر ذلك عبيد الراعى ولم ينتبه له

(١) الأغانى: ١١/١٠، ط الكتب المصرية بالقاهرة.

أصحابه فقال عبيد:

الم تـدر مـا قـال الظبـاء السـوانح *** أطغن أمـام الركب والركـب رائـح
فكر الذى لم يعرف الزجـر منهم *** وأيقــن قلبــى أنهــن نوائـــح[1]

ثـم شـارفوا مقصدهـم، فـألفوا الرئيس قـد نهشـته أفعــى فـأتت عليـه. على أن الجاهليين قد تطيروا من كل شئ ناقص كـالتيس الأعضـب أو الرجـل الأعور، والإناء الفارغ، والبئر الناضب ونحو ذلك.

والمثير للدهشة أن الجاهليين جاوزوا كل حد فى الطيرة والتشاؤم حتى إن الواحد منهم إذا كسر إنـاؤه أو تصـدع بنيانـه تشـاءم وتطـير، وهكـذا كـانوا يتشـاءمون مـن ظواهـر الطبيعـة المختلفـة كـالريح والسـحاب والرعـد والـبرق والمطر.

والأكثر دهشة أنهم تطيروا حتـى بالعطـاس، ويقـال: إنهـم نقلوهـا عـن الهنـود، كمـا يقـال إن ذلـك كـان بسـبب دابـة عندهـم يكرهونهـا، يقـال لهـا «العـاطوس»، وفـى التشـاؤم بالعطـاس يقـول أمـير شـعرائهم امـرؤ القيـس بن حجر الكندى:

وقد أغتـدى قبـل العطـاس بهيكـل *** شديد منيع الجيب نعـم المنطـق[2]

ومن أجل هذا كان إذا عطس مـن يحبونـه قـالوا لـه: «عمـراً وشـباباً» وإذا عطس من يبغضونه قالوا له: «وريا وقحايـا[3]» وإذا عطـس الرجـل قـال «بكلابى» وكلما كانت العطسة أشد كان التشاؤم أعظـم[4]، وقـد هـذب الإسـلام

(١) مروج الذهب: ٤١١/١.
(٢) أى أنه يذهب قبل أن ينتبه أحد لئلا يسمع عطاسا فيتشاءم به.
(٣) الورى داء يصيب الكبد فيفسدها.
(٤) العمدة جـ ٢ ص ٢٦٠.

ذلك المعتقد، فيقول المسلم إذا عطس «الحمد لله» وإجابته سنة – أحبه أم كرهه – «يرحمنا ويرحمكم الله ويصلح بالنا وبالكم».

ومن الشعراء الذين لم يتطيروا ضابئ بن الحارث البرجمى إذ يقول:

وما أنا ممن يزجر الطير همه *** أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية *** أمر سليم القرن أم مر أعضب[(١)]

وقال أعرابى مستنكرا الزجر:

لا يعلم المرء ليلا ما يصبحه *** إلا كواذب مما يخير الفال
والفال والزجر والكهان كلهم *** مضللون ودون الغيب أستار[(٢)]

ومما لا شك فيه أن الشعراء الذين استنكروا ذلك المعتقد الخرافى قد رزقوا عقولا ثاقبة، وأفكارا نيرة، فأنكروه وردوا الأمور إلى غيبيات قدرية لا شأن لتحكم الإنسان فى مصائرها، ولا ترتبط بحركة طائر أو صورته أو شكل حيوان.

بيد أنه كان هناك فريق ثالث أبطل التطير مثل هؤلاء إلا أنه زعم أن الإبل هى التى تسبب الفراق، فعليها يحمل من ينوى السفر وليس للغراب دخل فى ذلك... والعجيب أن تلك الفكرة ظلت مستمرة وشائعة فى عصور ما بعد الجاهلية. قال أبو الشيص:

الناس يلحون غراب *** البين لما جهلوا[(٣)]
وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل
ولا إذا صاح غراب *** فى الديار احتملوا

(١) السابق: ٢٦٢.
(٢) بلوغ الأرب: ٣/٣١٩.
(٣) العمدة: ٢/٢٦٢.

مـــــا فــــــرق الأحبابــــــ بعــــد اللـــــه إلا الإبــــل
ومــــا غــــراب البيـــن إلا *** ناقـــــــة أو جمــــــل

ورد بعضهم الخير والشر إلى نفسية المتطير ولا شأن للغراب أو غيره فى جلب الخير أو دفع الأذى فقال المرقش:

لا يمنعنـــك مــــن بغـــا *** ء الخـــير تعقـــاد التمـــائم
لا التشـــــاؤم بالعطـــــا *** س ولا التيـــامن بالمقاســـم
ولقـــد عـــدوت وكنـــت لا *** أعـــدو علـــى وان وحـــاتم
وإذا الاشـــائم كالأيـــا مـــن *** والأيـــامن كالأشـــائم
قـــد خـــط ذلـــك فـــى الزبـــو *** ر الأوليـــات القدائـــم

ولقد حرم الإسلام بعد ذلك الطيرة ودعا إلى التفاؤل بقول النبى عليه السلام: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» ذلك أن التفاؤل يقوى العزيمة ويثبت النية بعكس الطيرة التى تكسر النية وتثنى العزيمة.

هذا ويعد استقسام الجاهليين بالأزلام والقداح (السهام) نوعا من الطيرة والأزلام هنا سهام كانوا يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الأمر والناهى والمتربص، وهى غير أزلام القمار وقداحه. كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الشأن فيه أخذوا قدحا مكتوبا على بعضها «افعل» وعلى بعضها «لا تفعل»، وعلى بعضها؛ «نعم» وعلى بعضها «لا» إلى غير ذلك، فإذا أراد أحدهم سفرا مثلا أتى سادن الأوثان، فيضرب له بتلك القداح، ويقول: «اللهم إن كان خيرا له فأخرجه»، فما خرج له عمل به. وإذا شكوا فى نسب رجل أحالوا القداح، وفى بعضها مكتوب «صريح» وفى بعضها «ملحق» فإن خرج الصريح أثبتوا له نسبه، وإن خرج الملحق نفوه. حكى أبو الفرج الأصبهانى، أنهم كانوا يستقسمون عند ذى الخلصة وهو صنم

مشهور، وإن امرأ القيس لما قتل أبوه وخرج امرؤ القيس يطلب بثأره استقسم عنده بقداحه وهى ثلاثة الآمر والناهى والمتربص، فأجالها، فخرج الناهى، ثم أجالها فخرج الناهى، ثم أجالها فخرج الناهى، فجمعها وكسرها، وضرب بها وجه الصنم، وسبه ثم قال:

لو كنت كنت يا ذا الخلص المرتورا *** مثل، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا[1]

ومن تجاربهم التى لا تخضع للمنطق، ولا يستسيغها العقل قولهم بعقد الرتم والرتم نبت معروف كان الرجل إذا أراد سفرا عمد إلى رتم فعقده فإن رجع ورآه معقوداً اعتقد أن امرأته لم تخنه وإن رآه محلولا اعتقد خيانتها - قال أحد شعرائهم فى ذلك:

وخانته لما رأت شيبا بمفرقه *** وغرّه حلفها والعقد للرتم

كما شاع فيهم طرق الحصى بعضها ببعض عند السؤال، فيدعى الطارق بذلك معرفة الجواب، وكذلك خط الرمل. وكثيرا ما كان يتخصص فى زجر الطير وطرق الحصى وخط الرمل أفراد معينون اشتهروا بينهم بذلك.

ومن معتقداتهم غير المستساغة قولهم بالمرأة المقلاة (التى لا يعيش لها ولد) كانوا يزعمون أن المرأة المقلاة إذا وطئت قتيلا شريفا بقى أولادها، وفى ذلك يقول بشر بن أبى خازم الأسدى:

يظل مقاليت النساء يطأنه *** يقلن ألا يلقى على المرء منزر

ومن أوهامهم أن الغلام منهم كان إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت، وقذف بها وقال: (يا شمس ابدلينى بسن

(١) الأغانى: ٩٢/٩ - ٩٣.

﴿ ٧٣٦ ﴾

أحسن منها، ولتجر فى ظلمها آياتك) وربما يرجع ذلك إلى تقديس بعض العرب للنجوم ومنها الشمس ونسمع صوت هذه الخرافة فى قول طرفة:

سقته أياة الشمس إلا لثاته *** أسف ولم تكدم عليه بإثمد[١]

ومن معتقداتهم أن الناقة إذا نفرت، فسميت لها أمها سكنت من النفار وقيل فى ذلك:

أقول والوجناء فى تقحُّم *** ويلك قل ماسم أمها «علكم»[٢]

ومن معتقداتهم أن أكل السباع المتوحشة، يزيد فى قوة الإنسان ورباطة جأشه فقال بعضهم:

أبا المعارك لا تتعب بأكلك ما *** تظن أنك تلقى منه كرارا
فلو أكلت سباع الأرض قاطبة *** ما كنت إلا جبان القلب خوارا[٣]

وكان العربى فى سفره إذا هزلت راحلته وتعثرت ناداها «دعدع» فتقفز من وقعتها وتقوم من عثرتها، وتواصل سيرها، ومعنى تلك اللفظة «قم وانتعش واسلم» ولما جاء الإسلام بدلها بقوله «اللهم ارفع وارتفع» ونسمع صوت هذه الخرافة الجاهلية فى قول الحادرة:

ومطية حملت رحل مطية *** حرج تقام من العثار بدعدع[٤]

ومن عاداتهم أنهم إذا أرسلوا خيلهم على صيد، فالسابق يخضب صدره بالدم، قال امرؤ القيس:

---

(١) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٣١٨.
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٠.
(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٢٣.
(٤) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان جـ ٢ ص ٨٨ ط ١٩٧٣م.

كـأن دمـاء الهاديـات بنحـره ⁂ عصـارة حنـاء بشـيب مرجّـل[(١)]

وكان العرب إذا طالت الحرب المشتعلة بينهم، ربما أخرجوا النساء يبلن بين الصفين، معتقدين أن ذلك يطفئ نار الحرب بينهما فقال أحدهم يسخر من تلك العادة:

لقونـا بـأبوال النسـاء جهالـة ⁂ ونحن نلاقيهم ببيـض قواضـب

وقال آخر:

بـالت نسـاء بنـى خراشـة خيفـة ⁂ منـا وأدبـرت الرجـال شـلالا[(٢)]

وكان من عاداتهم أنهم إذا قتل رجل فردا من أبناء قبيلته، فإنه يحرج القبيلة فيما تتصرف به، ولكنهم فى مثل هذه الأحوال يميلون إلى التسامح ودمل الجرح، فحقنا للدماء يقترح سادة القبيلة أن يطلقوا سهما يطلقون عليها اسم «القصيعة» نحو السماء، فإن رجع مدرجا بالدماء، فإن أهل المقتول يطالبون بالثأر، وإن رجع نقيا من أى تلوث فإن ذلك ينهى القوم عن إراقة الدماء والأخذ بالثأر، ومن الطبيعى أن يرجع نقيا، فيقرون الصلح، ويمسح السادة على لحاهم بأيديهم علامة للسلم وإقرارا به، قال الشاعر:

عقـوا بسـهم ثـم قـالوا سـالموا ⁂ ياليتنى فى القوم إذ مسحوا اللحى[(٣)]

وكان من عاداتهم إذا أرادوا استحلاف شخص أو قدوا نارا وألقوا فيها ملحا خفية يهولون بذلك على الحالف، ثم يردد قسما يلقنونه إياه، وواضح

(١) محاضرات فى تاريخ الشعر الجاهلى ص ٦٤.
(٢) شلالا: متفرقين.
(٣) بلوغ الأرب: ١٨/٢.

أنهم بذلك الصنيع كانوا يرهبون الحالف الكاذب، قال اوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه ⁎⁎⁎ كما صد عن نار المهول حالف[١]

ومن عاداتهم أنهم كانوا يمتنعون عن الزواج فى شهرى صفر وشوال، أما صفر فربما لأنه يتبع الأشهر الحرم، فتبدأ به المعارك، فيتشاءمون منه، وذكر الألوسى أن صفر دابة فى البطن تنهش أمعاء الإنسان إذا جاع، وربما تعض كبد الإنسان فتقتله[٢]، أما شوال فأخذ اسمه لأن الإبل كانت تشول فى ذلك الوقت بأذنابها من شهوة الضراب، فتشاءمت منه العرب.

وكانوا يعتقدون وجود ناس من أولاد السعالى كعمرو بن يربوع، كما كانوا يعتقدون أن جرهما كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، فلما عصى الله تعالى بعض الملائكة وأهبطه إلى الأرض فى صورة رجل تزوج أم جرهم فولدت له جرهما، وواضح أن ذلك يتناقض تماماً مع ما جاء به الإسلام بعد ذلك.

وكان الشاعر العربى فى الجاهلية إذا أراد الهجاء، دهن أحد شقى رأسه، وأرخى إزاره، وانتعل نعلا واحدة ثم يبدأ بالهجاء.

واعتقد العرب بأنواع من الخرز بأنه يضر وينفع، وكان يروج باعة الخرز تلك المعتقدات لبيع بضاعتهم، فادعوا أن منه من يدفع الهم، ومنه ما يوسع الرزق، ومنه من يجيب الزوج إلى إمرأته، وأطلقوا على كل نوع اسما خاصاً «فالسلوانة» تطفئ العشق قال أحدهم:

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ٣٣٣ والمهول الذى يحلف على النار.

(٢) مروج الذهب: ٣٤٧/١.

لو أشرب السلوان ما سليت ★★★ ما بى غنى عنكم وإن غنيت

وكان من عاداتهم العجيبة شق الأزارق والبرقع يفعلون ذلك لدوام المحبة ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلا ولم تشق عليه رداءه ويشق عليها برقعها فسد حبهما – قال الشاعر:

إذا شق برد شق بالبرد برقع ★★★ دواليك حتى كلنا غير لابس
فكم شققنا من رداء محبر ★★★ ومن برقع عن طفلة غير عانس

وكانوا كذلك يشقون الثوب لإظهار الغضب، كما فعل أبو جندب بن مرة عند مقتل جاره، فخرج حتى قدم مكة فاستلم الركن وقد شق عن استه فطاف بالبيت، فعرف الناس أنه يريد شرا، وفى ذلك يقول أبو جندب:

إنى امرؤ أبكى على جاريه ★★★ أبكى على الكعبى والكعبيه
ولو هلكت بكيا عليّه ★★★ كانا مكان الثوب من حقويه

وكان من اعتقادات النساء أن إحداهن إذا تأخر من يطلبها للنكاح، نشرت جانباً من شعرها وكحلت إحدى عينيها مخالفة للشعر المنثور، وحجلت على إحدى رجليها، ويكون ذلك ليلا وتقول «ياالكاح أبغى النكاح، قبل الصباح»، فيسهل أمرها كما توهموا فقيل فى ذلك:

تصنعى ما شئت إن تصنعى ★★★ وكحلى عينيك أو لا فدعى
ثم احجلى فى البيت أو فى المجمع ★★★ مالك بعل أرى من مطمع(١)

وكان السارى إذا جن الليل ولم يهتد لأحد يلجأ إليه، نبح كما تنبح الكلاب، فتنبح على نباحه، فيهتدى بذلك إلى مكان الحى، استمع إلى نابغة بنى جعدة إذ يقول:

---

(١) بلوغ الأرب: ٢/٣٣٠.

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه *** ليسقط عنه وهو بالثوب معصم
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه *** لينبح كلب أو ليفزع نوّم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى *** له عند إتيان المهبين مطعم[1]
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا *** يكلمه من حبه وهو أعجم

وكانوا إذا غاب أحدهم وانقطع خبره فلم يعرفوا مصيره، جاء وليه إلى بئر قديمة أو حفرة عميقة، ونادى على بابها: يا فلان، أو يا أبا فلان، ثلاث مرات، فإن كان حيا سمعوا صوت الصدى، وإن كان ميتا لم يسمعوا شيئا وفى ذلك قال أحدهم:

دعوت أبا المغوار فى الحفرة دعوة *** فما آض صوتى بالذى كنت داعيا
اظن أبا المغوار فى قفر مظلم *** تجر عليه الذايات السوافيا[2]

وكان من عاداتهم أنهم يدفنون أشياء نفيسة من ممتلكات الميت مع الميت فى قبره، مثال ذلك ما يروى أن عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دفن فى حلتين قيمتها ألف مثقال من الذهب، وكثيراً ما كانت تدفن المرأة بحليها معها، وهذا فى حسب اعتقادهم مبالغة فى إكرام الميت والرفع من منزلته، وتلك العادة أيضاً انتشرت عند الأمم الأخرى غير العرب، فقد عثر على كنوز ضخمة مدفونة مع ملوك الفراعنة فى الأهرامات.

وكانوا إذا زارهم ضيف وكرهوا رجوعه إليهم كسروا شيئاً من الأوانى خلفه، أو أراقوا بعض الماء على أثره وفى ذلك قال أحد شعرائهم:

كسرنا القدر بعد أبى سواح *** فعاد وقدرنا ذهبت ضياعا[3]

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ١١٣.
(٢) بلوغ الأرب: ٥/٣.
(٣) بلوغ الأرب: ٣٣١/٢.

﴿٧٤١﴾

وكان العربي إذا أراد أن يتباهى بكرمه، جمع حشدا من ندمائه ليشربوا ثم لجأ إلى ناقة من ملك غيره فعقرها، وذلك ليستام مالك الجزور بها أعلى الثمن فيغرمه له، فيعد ذلك الغرم غنما والصبر على سوء خلقه كرما وفي ذلك قال برج بن مسهر الطائي:

كهاة شارف كانت لشيخ *** له خلق يحاذره الغريم
فأشبع شربه وسعى عليهم *** بإبريقين كأسهما رذوم

ومن عاداتهم الخرافية ما كانوا يسمونه «القرزحلة» تلبسها المرأة ليميل إليها بعلها دون ضرتها، ومنها «العفرة» التي تمنع الحبل، ومنها «الينجلب» ليبقى الزوج ملازما بيته، ومنها «الخصمة» للدخول على أصحاب الجاه، ومنها «الوجيه» ومنها «العطفة» التي تمنع العطب، ومنها «الكحلة» لدفع الحسد، و«الفسطة» لإيذاء العدو، وكانت المرأة الكارهة لزوجها إذا أراد زوجها السفر ألقت خلفه حصاة ثم نواة ثم روثة أو بعرة وفي ذلك قال أحدهم(١).

لا تقتفي خلفي إذا الركب اغتدى *** روثة عير وحصاة ونوى
لن يدفع المقدار أسباب الرقى *** ولا التهاويل على جن الفلا

ومنها «الهمنة» ويستعطف بها القلب، ومنها «الدردبيس» و«الديبس» لاستجلاب قلوب الرجال قال أحد شعرائهم:

جمعن من قبل لهن وفطسة *** والدردبيس تمائما في المنظم
فانقاد كل مشذب مرس القوى *** لحبالهن وكل جلد شيظم

وبعد: فتلك هي أبرز المعتقدات الخرافية والأسطورية التي كثرت وشاعت في العصر الجاهلي، وكان لها أصداؤها الواضحة وآثارها الملموسة

(١) بلوغ الأرب: ٦/٣.

فى الأدب الجاهلى شعراً ونثراً.

ولقد تنوعت على النحو الذى فصلنا القول فيه آنفا بين خرافات وأساطير فلكية وأخرى حيوانية وثالثة غيبية ورابعة إنسانية اجتماعية.

وقد اتضح لنا من خلال ما قلناه أن الأديب الجاهلى لم يكن منفصلاً عن تلك الخرافات والأساطير، وإنما تأثر بها تأثراً كان له صوته وصداه فى أدبه، مردداً لما يردده القوم منها أو معارضاً لها غير مؤمن بها. كذلك اتضح لنا ما اعتقده القوم فى ذلك العصر من ارتباط الشعر والشعراء بقوة من قوى ما وراء الطبيعة، وتحددت هذه القوة فى الجن، والإيمان بأن لكل شاعر تابعا من الجن يلقى على لسانه الشعر، بل وحددوا أسماء لهؤلاء الجن.

وإذا أردنا أن نجمل نتائج هذه البحث فيمكن تحديدها فيما يلى:

١- أن المعتقدات الخرفية والأسطورية قد مثلت إلى حد ما مادة ثرية للأدب فى هذا العصر شعراً ونثراً.

٢- إيمان الجاهليين بأن للشيطان دوراً كبيراً فى إلهام الشعراء.

٣- التأثر الواضح للأمثال الافتراضية الجاهلية وسجع الكهان بما شاع فى البيئة الجاهلية من خرافات وأساطير.

٤- أن هذا البحث يمثل حلقة فى سلسلة الاهتمام بدراسة الأسطورة وعلاقتها بالأدب.

وبالله التوفيق،،